٤٠ خطوة

للخروج من المعاصي وشؤمها

عنوان الكتاب

٤٠خطوة للخروج من المعاصي وشؤمها

اسم المؤلف: الشيخ عيسى بن صالح بن خليفة السادة.

حجم الكتاب: ١٤×٢٠سم.

عدد الصفحات: ٢٤٠.

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ- ٢٠١٨م

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٧١٧٥

الترقيم الدولي: ١-٤٧١٩-٩٠-٩٧٧-٩٧٨



٤٠ خطوة
للخروج من
المعاصي وشؤمها

جمع وترتيب
الشيخ
عيسى بن صالح بن خليفة السادة


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

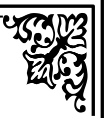
الإهداء

إلى أخي عبد الغفور بن صالح السادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إلى الوالد صالح بن خليفة السادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وإلى الوالدة الغالية غدنانة بنت الشيخ القاضي السيد إبراهيم بن صالح السادة حفظها الله.



مُقَدِّمَة

من هو الذي لا يقع في معصية الله؟!.

ﮀوقد قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُم»(١).

ﮀوقال ﷺ: «لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ»(٢).

ﮀوقال ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(٣).

وأي نفس -غير نفوس الأنبياء صلوات الله وسلامه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩) وحسنة الألباني.

عليهم- ترقى لمنزلة لا تدركها كبوة، أو لا تغلبها شهوة؟!.

ولكن المؤمن مع ذلك يدرك خطورة المعصية وشناعتها، وأنها جرأة على مولاه، وإباق من سيده، وأنه ما من مصيبة في الدنيا إلا بذنب، وهو وإن واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خائف، مشفق، يتمنى ذلك اليوم الذي يفارق فيه الذنب ويتخلص منه.

لقد كان سلف الأمة -أهل الورع والخشية، والزهد والعبادة- يتحدثون كثيرًا عن المعصية، ويخشون على أنفسهم من شؤمها، فكيف بنا معشر المخلطين، المذنبين؟!

كيف بشاب يعيش في هذا العصر، وقد أجلبت الفتن والشهوات عليه بخيلها، ورجلها، وصار يرى بعينه، ويسمع بأذنه صباح مساء ما يدعوه للمعصية ويحثه عليها، وما يؤخره عن الطاعة، ويحجزه عنها.

فلا نلومه بعد ذلك إن كان يتساءل في كل مناسبة.

ما السبيل للخلاص من المعصية وشؤمها؟!.

وما الطريق لمجانبة سبيل العاصين، والسير في ركاب الطائعين المخبتين؟!.

ولهذا وذاك وعلمي بما يعانيه إخوتي الشباب رأيت أن افتتح هذه السلسلة[١] بالحديث عن سبيل النجاة من شؤم المعصية، وهو ليس حديثًا عن أضرارها ومخاطرها، فالحديث عن ذلك كثير ومتداول قد كتب عنه السلف والخلف.

لكني سأتحدث عن بعض المقترحات التي أرى أنها تعين الشاب بإذن الله على التخفف من شؤم المعصية.

وأنا إذ أفتتح هذه السلسلة المباركة آمل أن تكون فألًا طيبًا فيخلصني الله مما أعاني منه من شؤم المعاصي وثقلها؛ فالجزاء من جنس العمل.

وحين أتحدث في هذا الموضوع فليس ذلك شهادة براءة لي حاشا لله، أو دعوى علم ومعرفة. بل إني أعتقد أن أكثر من

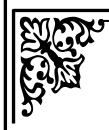
---

(١) إن أصل هذا الكتاب هو سلسلة نشرت في وسائل التواصل الاجتماعي على حلقات، ثم تم تجميعها وترتيبها في كتاب.

يقرأ ما سأكتبه هم أولئك الذيـن أتقى لله مني وأخشى، وأبعـد مني عـن المعصية وأبوابها.

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجنبني وإخواني شؤم المعصية، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته، وبفضله عن من سواه، إنه سميع مجيب.






الهدف من طرح هذا الموضوع

فإن الله خلق الخلق وقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] فخلقهم على حال ووصف وهيئة يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وركّب فيهم ما شاء من الأوصاف والأخلاق، وجبلهم جَلَّ وَعَلَا على الضعف والنقص والخطأ، وهو مع هذا «لطيف بهم» بما جبلهم عليه، «خبير بهم» وبما يعملون.

ومن هذا فقد كتب عليهم الخطأ والذنب والمعصية.

ولـمّا كانت المعاصي أمر حتم لابّدُ منه وليس إنسان يُعصم منها -أيّا كان جنسه ووصفه وهيئته ومكانته- إلا الأنبياء، بل لقد ثبت في حديث الشفاعة أن الناس لما يأتون آدم يستشفعون به يردهم بقوله: «رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي».

فلمّا كان هذا الأمر أمر حتم، كان لابّدُ من معرفة كيفية التعامل معه على الهيئة التي وصفها الله تعالى ورسوله ﷺ.

تنبيه: أرجو ألا يفهم من هذا التهوين من شأن المعصية والتسويغ والتبرير لها على عظم شأنها وفداحة جرمها!.

الهدف من طرح مثل هذا الموضوع:

إبرازًا لمراعاته الإسلام للجبلّة البشرية في تشريعاته وتكاليفه وأوامره ونواهيه.

وحرص الإسلام على تطهير أفراده وتهذيبهم وتزكيتهم من رجس الشيطان، هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإن في بيان هذا إظهار وبيان لسعة رحمة الله جلّ وتعالى وسعة علمه وحلمه وعفوه، وكيف أنه جلّ وتعالى تعرّف إلى عباده بجميع أنواع التعرّفات.

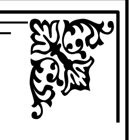
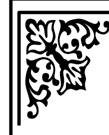
ثم إنه قد حلّ في المسلمين قوم يهوّلون المعصية ويعيّرون العاصي حتى لا يكاد يجد بابًا مفتوحًا إلى رحمة الله من التأييس والقنوط!.

والله الرحمن الرحيم قد خاطب عباده بقوله:

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣].

فتأمل كيف ناداهم الرحمن المتفرّد بالعزة والجلال بأحب المقامات إليه -مقام العبودية- وكيف أكّد سعة رحمته في ختام الآية الكريمة.



قواعد هامة

في فقه الذنوب على ضوء نص الوحي:

قَدَر الذنوب والحكمة من ذلك: لقد بيّن الله تعالى في كتابه شدّة عداوة الشيطان، لعباد الله تعالى، وان عداوته لهم باقية حتى يأذن الله تعالى بنهاية الشيطان وشره وشركه.

ﮋ وثبت قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهَّ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَّ فَيَغْفِرُ لَهُم»(١).

ﮋ ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهَّ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَّ فَيَغْفِرُ لَهُم» وهذا من رحمة وجود الله أنه جَلَّ وَعَلَا قدر على عباد وجود الخطايا، ثم يتوب عليهم سبحانه إذا تابوا إليه، فلا ينبغي للعبد أن يقنط... معناه لا تقنط، ولا تيأس، بل بادر بالتوبة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزُّمَر:٥٣] يعني للتائبين، فهو قدر الذنوب، وقدر المغفرة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا ينبغي للعبد أن ييأس بل ينبغي له البدار بالتوبة والاستغفار، وحسن الظن بالله، ولو فعل ما فعل من الذنوب، لكن عليه أن يجتهد في المحافظة، والحذر، والله يتوب على من تاب جَلَّ وَعَلَا.

فبيّنت لنا في هذا الحديث أن المعصية قدر الله تعالى على عباده وأنه قدر مقضي نافذ لا محالة.

السؤال: ما حكمة تقدير الذنوب والمعاصي على العباد؟!

فانظر إلى هذه الحكم في قدر الذنوب والمعاصي:

حتى تتحقق معاني أسماء الله وتعالى وصفاته، فإن الله جلّ وتعالى قد اتصف بالرحمة والمغفرة، والرحمة والمغفرة تستلزم ذنبًا يُغفر.

معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ قال الإمام القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيحدث له ذلك: أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمته ورحمته ومغفرته وعفوه وحلمه وكرمه».

ﮋ ثم تأمل أيها المذنب الخطّاء أن هذه الذنوب والمعاصي إنما قدّرها الله تعالى على عبده لتولّد عنده هذا النوع من العبودية له، وهو المعنى الذي دلّ عليه قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُّ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَّ فَيَغْفِرُ لَهُم»(١).

وهنا شبهة والرد عليها:

الشبه هل الله تعالى يحب أن يعصى:

هذا الحديث ليس فيه أن الله تعالى يحب أن يتقرب إليه بالمعاصي، وكيف يكون الأمر كذلك وهو سبحانه القائل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ [الحُجُرات:٧].

ﮋوكيف يحب الله تعالى التقرب إليه بالمعاصي وهو قد نهى عن فعلها، وتوعد فاعلها بالعذاب: قال رسول الله ﷺ: «لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهَّ، وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٦٠)، البخاري (٤٦٣٤).

وهذا الحديث فيه بيان سعة رحمة الله ومغفرته لذنوب عباده، وهذا المعنى باعث للمسلم على عدم القنوط من رحمة الله تعالى، فإذا أذنب تاب وأناب.

ولكن لا يجوز للمسلم أن يغتر بذلك فيتجرأ بسببه على المعصية، فما يدريه أن يعيش بعد الذنب حتى يتوب.

فمن الناس من قد تقبض روحه حال فعله الذنب أو بعده قبل التوبة، ولو تاب فما يدريه أن تكون توبته قد قبلت، وعلى هذا فإنه لا ييأس من رحمة الله ولكنه في المقابل لا يأمن مكر الله، ولهذا قال العلماء إنه ينبغي للمسلم في هذه الحياة أن يكون بين الخوف والرجاء، وبذلك يستقيم أمره.






الخطوة الأولى

مِنْ أي العصاة أنت!

فالذنب والمعصية لها أثران:

الأثر الأول: أثر سلبي انهزامي المذموم: وهو الاستسلام للمعصية والإغراق فيها والشؤم بها شؤمًا مطلقًا يقعده عن التوبة والاستغفار والعمل.

الأثر الثاني: الأثر الإيجابي المحمود: وهو أثر يحدثه وقوع المعصية والذنب مما سبق وصفه في مشاهد حكمة الله تعالى في التخلية بين عبده ومعصيته جلّ وتعالى.

فتأمل هذه المشاهد ولاحظها في بديع حكمة تقدير الله تعالى الذنوب والمعاصي وتقدير تخليته جلّ وتعالى بين العبد وبين معصيته.

من أي العصاة أنت؟

أخي الكريم قارن بين الصورتين التاليتين:

الأولى: شاب:

تتحكم المعصية في قلبه، وتسيطر على تفكيره، فيخطط لها ويعمل جهده وفكره لتحصيل طريق توصل إليها، ثم يسعى لذلك بجوارحه وربما بذل جزءًا من ماله أو جاهه، وحين تفارقها جوارحه لا يزال صداها يتردد في خاطره، فيهيم في ذكراها، وحين يلقى أصحابه فهو يفاخرهم بما عمل، ويجاهر بما اقترف، وحين تفوته فرصة يجتر الحسرات ويعتصر الندم على ما فات.

وإن حدثته نفسه بالتوبة فإنما هو خاطر سرعان ما يزول ويذيبه تطلع النفس للمعصية.

الثانية: شاب:

يبغض المعصية والعصاة، قد أشغل وقته في طاعة مولاه. ولكن تأخذه في لحظة من اللحظات حالة ضعف بشرية فيواقع المعصية. وما أن يفارقها حتى يلتهب فؤاده ندمًا وحسرة فيتألم ويحزن. ويرفع يديه لمولاه تائبًا مستغفرًا، وما أن يسمع واعظًا

حتى يرتجف فؤاده، وقد بدت معصيته بين عينيه، ويظل بعد ذلك يسأل ما المخرج؟!. ما الحل؟!، ويجانب كل طريق يؤديه إلى المعصية، وهكذا حاله وديدنه حين يقارف المعصية. ثم هو بعد ذلك يحتقر نفسه ويمقتها،

ويشعر أنها بعيدة عن طريق أهل الصلاح ويتهمها بصفات أهل الجهل والنفاق.

فهو ممن قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فبالله عليك هل يستويان.

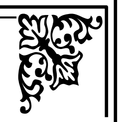
وأيهما أقرب إلى رحمة الملك العلام والتواب الرحيم؟!.

وإلى هذا المعنى أشار الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة، فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه، فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه، لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له وأنه يرى كل وقت مالا

صبر له عليه؛ فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه، خائف، مختلج في صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له، فهو يجيب داعي النفس تارة، وداعي الإيمان تارات».

فأما من بنى أمره على أن لا يقف عن ذنب ولا يقدم خوفًا ولا يدع لله شهوة، وهو فرح مسرور يضحك ظهرًا لبطن إذا ظفر بالذنب، فهذا الذي يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة ولا يوفق لها.



الخطوة الثانية

لا تستصغر الذنوب

ﮋ قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ابْـنِ آدَمَ خَطَّـاءٌ وَخَيْـرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(١).

لكن لا حجة للمذنب في ذلك، ولا مبرر للاستمرار في الذنب، بل إنه مأمور بتصحيح خطئه.

والجملة الثانية من الحديث ترشده إلى طريق الخلاص وتفتح له باب الأمل «وخير الخطائين التوابون».

وكذلك قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩) وحسنة الألباني.

فمن تدبر هاتين الآيتين وما في معناهما؛ علم أنه لا عذر له في الإقامة على الذنب.

۞ وقد دعاه الله عَزَّوَجَلَّ إلى التوبة كما قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»(١).

۞ وقال: «اللهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ، سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضِ فَلاَةٍ»(٢).

صحيح أن كلًا منا فيه عيوب، ولديه ذنوب، كثيرًا ما نقع فيها:

-فإما ارتكاب محرم.

-أو تقصير في واجب.

ولكن من رحمة الله بعباده أن شرع لهم التوبة وأمرهم بالاستغفار.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٩).
(٢)أخرجه البخاري (٦٣٠٩).

فيجب اجتناب الكبائر والتوبة منها، ثم معالجة الأخطاء التي كثيرًا ما يقع فيها المسلم، خصوصًا ما وافق منها هوىً في نفسه.

فغالبًا ما يكثر الوقوع فيما تميل إليه النفس من الشهوات المحرمة، ثم يألف ذلك الذنب وقد يستصغره، وهنا مكمن الخطر.

فالسيئات التي يُتهاون بها قد تكون أخطر عليه من الكبائر، لأن للكبائر وحشة شديدة، ووقعُ زاجرها أكبر، ونادرًا ما تقع من المسلم.

لكن البلاء في التهاون بالصغائر، لذلك حذّر منها رسول الله ﷺ فقال: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ** -أي: طعامهم- **فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ، فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا...**»[١].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، صححه الألباني.

واستصغار الإنسان لذنوبه يجعله لا يلقي لها بالًا فينساها، وقد لا يستغفر أو يتوب منها، فيظل على خطر عظيم طالما كان مقيمًا على ذلك الذنب، وفي غفلة عما هو فيه.

وهنا الخطورة أيضًا حيث تتراكم عليه الذنوب فتهلكه، من حيث لا يشعر.

لكن متى أفاق وكانت لديه الرغبة الصادقة في التوبة، فليعلم أن مما يعينه على التخلص من الذنب أن يدرك أنه مذنب ومخطئ، فيلجأ إلى ربه ويسأله التوفيق للتوبة النصوح.

وأن يكون ذا بصيرة بمداخل الشيطان وشهوة النفس التي توقعه في الذنوب، والإنسان بصير بنفسه وهو طبيبها، فإن أراد لها السلامة فلن يعجزه الظفر بها متى استعان بربه تعالى، وصدق في توبته. خصوصا ونحن في هذا الشهر، شهر التوبة والمغفرة.

فهل من تائب، وهل من مغتنم للفرصة قبل فوات الأوان؟

۞ قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلا وَلَهُ ذَنْبٌ

يَعْتادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدنيا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»[(١)].

وقال ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[(٢)].

من الأخطاء الّتي تسرّبت إلينا من رهبانيّة النّصارى ورياضات البوذيّين وغيرهم، طلب الوصول إلى حالة السّلامة الكاملة من الذّنوب، وهذا محال؛ لأنّ جنس الذّنب لا يسلم منه بشر، وكون المؤمن يجعل هذا غايته فهو يطلب المستحيل، إلاّ أن يجعلها غاية مطلوب منه تحقيق أقرب النّتائج إليها.

غير أنّ ذلك لا يكون على حساب نسبة التّقصير في ذلك إلى النّفس ومن ثمّ فقدان الثّقة بها.

وإنّ النّاظر إلى النّصوص يدرك بجلاء أنّ مراد الله تعالى من العبد ليس مجرّد السّلامة من المخالفة، بل المراد بقاء العلاقة بين العبد وربّه:

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، صححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩) وحسنة الألباني.

بمعنى:

- أن يطيعه العبد فيُؤجر.
- ويذنب فيستغفر.
- وينعم عليه فيشكر.
- ويقتّر عليه فيدعوه ويطلب منه.
- ويضيّق أكثر فيلجأ ويضطر، وهكذا.

قال ﷺ: «**لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ**»(١).

وكان ﷺ، مع سلامته من الذّنوب يكثر من أن يستغفر.

والمهم أنّ يستمرّ العبد في طلب المغفرة من الله تعالى، كبيان أنّه لا يسلم عبد ما من جنس التّقصير الّذي يوجب طلب المغفرة، إمّا تقصيرًا عن الأكمل في نظرهم كما في حقّ الأنبياء، أو وقوعًا في الذّنب كما في حقّ غيرهم.

وتأمّل معي قوله ﷺ: «**سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٧).

فإنّ فيه معنىً لطيفًا يقطع الطّمع على المؤمن أن يبلغ حقيقة التّديّن والقيام بحقوق الله تعالى.

بل المطالبة أن يسدّد العبد وأن يقارب فكأنّ الإصابة غير ممكنة، ولكن كلّما كان سهم العبد أقرب إلى الإصابة فهو أقرب للسّلامة، وهذا هو معنى ما ذكرناه فلله الحمد.

فإذا وطّن العبد نفسه على التّوبة من الذّنب كلّما وقع فيه سكنت نفسه عن التّطلّع للوقوع في الخطأ.

أو على الأقـل أضعفت أثـر الذّنب في النّفس، فالتّوبة لا يقوم بوجهها شيء من الذّنوب والخطايا بالغًا ما بلغ.

- إذا صدق العبد فيها، وذاق قلبه حرقة النّدم وألم الحسرة من زلّة الذّنب.
- وإذا عرف ربّك منك تكرار التّوبة وتعاهدها فلا أثر لذنبك بعد ذلك أبدًا.
- وإذا عرف إبليس منك كثرة التّوبة وتعاهدها قنط وأيس منك.

فأهلِك إبليس بتعاهد التّوبة في كلّ وقت وإن كثرت،

فإنّ الله لا يملّ منها كما يملّ ابن آدم، قال رسول الله ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فقَالَ: أَيْ رَبِّ، أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغفِرْ لِي، فقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ، فقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»[(١)].

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: «شرط بعض النّاس عدم معاودة الذّنب، وقال: متى عاد إليه تبيّنّا أنّ التّوبة كانت باطلة غير صحيحة؛ والأكثرون على أنّ ذلك ليس بشرط وإنّما صحّة التّوبة موقوفة على الإقلاع عن الذّنب والنّدم عليه والعزم الجازم على ترك معاودته».

وفي (المستدرك) أنّ النّبيّ ﷺ جاءه رجل فقال: «يا رسول

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٦٠).

الله أحدنا يذنب، قال: يُكتب عليه، قال: ثمّ يستغفر منه، قال: يُغفر له ويُتاب عليه، قال: فيعود فيذنب، قال: يُكتب عليه، قال: ثمّ يستغفر منه ويتوب، قال: يُغفر له ويُتاب عليه، ولا يملّ الله حتّى تملّوا».

وعن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خياركم كلّ مفتّن توّاب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: حتّى متى؟ قال: حتّى يكون الشّيطان هو المحسور».

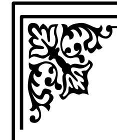
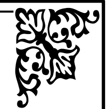
وقيل للحسن: «ألا يستحي أحدنا من ربّه يستغفر من ذنوبه ثمّ يعود ثمّ يستغفر ثمّ يعود، فقال: ودّ الشّيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملّوا من الاستغفار».

كما أنّ كثرة التّوبة يزيل أثر الذّنب في الدّنيا والآخرة، وهو ارتباط وثيق بين الله وبين العبد امتدح الله به نبيّ الله إبراهيم فقال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

▪فليس من شرط الولاية السّلامة من الذّنوب، ولكن عدم الإصرار عليها والتّوبة منها، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٥]، ولا أصرح من هذه الآية على أنّ الرّجل قد يكون من المتّقين بل والمحسنين ومع ذلك فقد يقع منه الذّنب بل الفاحشة ولا يمنع ذلك من بلوغه مرتبة المتّقين أهل الجنّة، بشرط أنّه إذا فعل الفاحشة تذكّر وأقلع وتاب، فهو إذًا لا يصرّ على المعصية مع أنّه قد يقع فيها المرّة بعد المرّة لكنّه يتوب منها أيضًا كلّ ما وقع فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

الخطوة الثالثة

الذنب المعتاد

وهو فقه أخصّ من سابقه: إذ أنه قد يُتوهم أن مشاهد العبودية المترتبة على الوقوع في المعصية والذنب إنما تكون حين يقع الذنب مرة واحدة!.

فجاء هذا الفقه النبوي ليبين أن هذه العبودية تتجدد وتكون كلّما وقع الذنب.

قال ﷺ: «**إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا** -وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا- **فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ** -وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ- **فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ** -أَوْ أَصَبْتُ- **آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا،** وَرُبَّمَا قَالَ: **أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ**

-أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ- آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاَثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»(١).

وقال ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدنيا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»(٢).

فتأمل قوله: «فليعمل ما شاء».

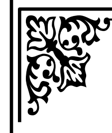
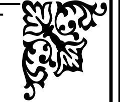
طالما أنه يستشعر عظم ذنبه وعظمة ربه فيتوب إليه ويؤوب فإن ذلك لا محالة مطهر له من ذنبه حاجز له عن أن يصرّ عليه.

وطالما أن ذلك يحقق له هذه الأنواع من العبودية لله فإن ذلك حقًّا هو الحالة السلوكية الواقعية -المثالية- للبشر في الأرض «يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم».



---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٦٠).
(٢) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، صححه الألباني.

الخطوة الرابعة

إياك والفرح بالذنب

قال الإمام ابن الجوزي:

«الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها».

«ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مواقعتها».

«والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به».

«ومتى خَلِيَ قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه، وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حيًا لأحزنه ارتكابه للذنب، وغاظه وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام»[١].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٩٨).

قال ابن السماك: «أصبحت الخليقة على ثلاثة أصناف:

١ - صنف من الذنب تائب، موطن لنفسه على هجران ذنبه، لا يريد أن يرجع إلى شيء من سيئته هذا المبرِّز.

٢ - وصنف يذنب ثم يندم، ويذنب ويحزن، ويذنب ويبكي، هذا يرجى له ويخاف عليه.

٣- وصنف يذنب ولا يندم ولا يحزن، ويذنب ولا يبكي فهذا الكائن الحائد عن طريق الجنة إلى النار»[١].

قال يونس بن العوام بن الحوشب: «كان يقال الابتهاج بالذنب أشد من ركوبه»[٢].

فراجع نفسك -أخي الكريم- وانظر حالك مع معصية الله عَزَّوَجَلَّ، هل أنت ممن يفرح بالمعصية ويبحث عنها ويسعى لها؟!.

وإياك أن تنسيك لذة الشهوة مرارة الخطيئة، وأن تحرق نار الهوى بذرة الإيمان والصلاح في قلبك.

---

(١) شعب الإيمان (٩/ ٣٥١).

(٢) شعب الإيمان (٩/ ٣٥١).

ومتى تكون الذنوب سبب الهلاك والإهلاك؟

ذلك:

- حين لا تتحقق الواقعية -المثالية- من هذا القضاء والقدر.
- حين لا يتحقق (الاستغفار) والعبودية لله.
- حين تحدث المعصية ارتكاسًا وعمىً.
- حين لا يورّث الذنب ذلًا وخضوعًا.
- حينها يستحقون الهلاك ويقع الإهلاك.

واعلم إن الله جَلَّ وَعَلَا إنّما قدر هذه الذنوب والمعاصي لتحدث أثرًا إيجابيًا في واقع الحياة والسلوك من معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته وتحقيق العبودية له.

أمّا حين تكون طغيانًا وجبروتًا واستهزاءً واستعجالًا للعذاب.

تكون هي رجسة الشيطان، وذلك لا يكون إلا ممن تسلّط عليه إبليس فملك منه لبّه وعقله وفؤاده -أجارنا الله وإياكم من ذلك.

واعلم: أن حديث النفس والخواطر معفو عنها:

فإنه لما كانت النفس مفطورة على الخطأ ركّب الله فيها خواطر تعتور فكره وهي:

- إما خواطر رحمانية.
- أو شيطانية.
- أو نفسانية.

ولّما كان العبد غير قادر على أن يحجم خواطره من أن تخطر على باله وفكره،

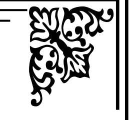
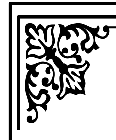
فقد عفى الله تعالى عن ذلك؛ قال ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ»[١].

بل أعظم من ذلك فإن الانتهاء عن داع النفس والخاطر السيء يورث أجرًا من الله الكريم المنان. فقد قال ﷺ: «مَنْ هَمّ بِسَيّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً»[٢].



---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (١٣١).

الخطوة الخامسة

رفقًا أيها العاصي

رفقًا بنفسك التي بين جنبيك فلا تؤيّسها من رحمة الله.

وتأمّل عظيم فضل الله وإحسانه وبرّه عليك.

فلا يُشغلنّك الشيطان بذنبك عن أن تطالع عبودية الله في أثر معصيتك؛ فإن هذا مقام عظيم.

فتب إلى الله ولا تيأس أو تقنط:

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].

فالتوبة التوبة، وأجب نداء ربك الرحمن وهو يناديك:

«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء

ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا أتيتك بقرابها مغفرة».

«يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا».

فهل تجيب نداء ربك.

وهل تدخل في رحمته.

«إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل».

ثم اعلم -يا رعاك الله- أن التوبة النصوح ليست ألفاظًا يلهج بها اللسان دون مواطئة القلب والجوارح.

بل التوبة النصوح التي تنفع هي التي استكملت شرائطها: ابتداء من:

١ - الإقلاع عن الذنب.

٢ - الندم على ما فات!.

٣- العزم الجازم على ترك معاودته.

٤ - وانتهاء بمعاودة التوبة كلّما وقع الذنب.




الخطوة السادسة

استعظم ذنبك

المؤمن التقي الذي يخاف مولاه ويعظمه يستعظم ذنبه ويكبر في نفسه تقصيره في جنب الله.

وبقدر إيمان المرء وتعظيمه لله تعظم لديه معصيته وتكبر عنده خطيئته.

يصف الله عباده المتقين بقوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

وفي آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٦-١٧]، فرغم ما هم عليه من تقوى وعبادة وإنفاق وقيام الليل إلا أنهم يستغفرون الله في الوقت الذي يرونه أقرب للإجابة.

ويصور حال المؤمن مع المعصية عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

تصويرًا دقيقًا بالغًا فيقول: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْه، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ»، فَقَالَ: بِهِ هَكَذَا، قَالَ أَبُو شِهَابٍ: بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ»[1].

قال ابن أبي جمرة: «الحكمة في التمثيل بالجبل أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه، بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادة».

وقال المحب الطبري: «إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله ومن عقوبته لأنه على يقين من الذنب، وليس على يقين من المغفرة، والفاجر قليل المعرفة بالله، فلذلك قل خوفه واستهان بالمعصية».

صور لنفسك: أخي الكريم: لو وضعت نفسي وإياك على ميزان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يصور حال المؤمن مع المعصية؛

كيف نرى معاصينا وذنوبنا ففي أي الكفتين ترانا نكون؟!.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٤٩).

أنحن من أولئك الذين يرون ذنوبهم كالجبال.

أم من الذين يرونه كالذباب؟!.

وهذه الحساسية المرهفة والوجل من الذنب واستعظامه ليست صفة اختص بها ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بل صفة غالبة عند عامة الرعيل الأول.

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعَرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ الْمُوبِقَاتِ**»[(١)].

ويقف المسلم أمام هذا الأثر مشدوهًا متسائلًا.

يقول ذلك أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأحد التابعين وأحد تلامذته مصورًا النسبة بين رؤية أولئك لذنوبهم ورؤية أصحاب النبي ﷺ، ويتساءل في نفسه ماذا عسى أن تكون ذنوب أولئك التابعين. كيف تكون النسبة بين رؤيتنا لذنوبنا وتقصيرنا وبين ذاك الجيل؟!.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٧).

ماذا عسى أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقول لو رأى ما نحن عليه؟!.

والشعور نفسه نلمسه عند حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ يقول: «إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقًا، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات».

واعلم أخي: إن الذنوب هي حالة استجابة لداعي الشيطان، مهما صغرت الخطيئة، والشيطان عدو لله، فاستجابة داعي الشيطان والغفلة عن داعي الرحمن أمر عظيم مهما حقر في نظر العاصي.

قال ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»**[(١)].

يقول بلال بن سعد: لا تنظر إلى صِغر المعصية، ولكن

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، صححه الألباني.

انظر إلى عظمة من عصيت!.

واعلم أن من أسباب عدم تعظيم الذنوب:

١- التساهل والتوسّع في المشتبهات.

٢- التوسّع في قضية الضرورة وأحكامها، فتتساهل المرأة في الكشف عند الطبيب، والتوسع من جهة الخدم والخادمات والتوسع في اقتناء الفضائيات، وهكذا! بحجّة الضرورة.

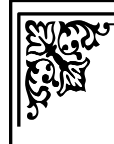
ومثل هذا التوسّع والتساهل مما يضعف في النفس استعظام الخطيئات ويورث احتقار الصغائر من الذنوب والمعاصي!.

إن النفس التي تستعظم الذنب ولا تحتقر المحقرات من الذنوب أشد ما تكون ثقة بالله وأنسًا به وفرارًا إليه منه!.

فإن ذلك وقاية لها من أن تغفل فتطيش، فتوغل.

ووقاية لها من الهلكة.



الخطوة السابعة

أصلح خواطرك

معلوم أن كل أعمال بني البشر إنما أصلها خاطرة وفكرة حتى تصير كسبًا وعملًا، والمعصية والخطيئة أصلها خاطرة أو فكرة.

والخواطر كما قسّمها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاث خواطر:

الأولى: الرحمانية: هي كل خاطرة لعمل البر والفضل كالجهاد وطلب العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدقات وغير ذلك.

الثانية: الخواطر الشيطانية فهي خواطر الفحشاء والمنكر.

الثالثة: الخواطر النفسانية فهي الرؤى والأحلام.

والخواطر أمرها عظيم من حيث أنها لا ينفك عنها أي أحد من البشر، وتكمن الخطورة فيها من جهتين:

الجهة الأولى: كون أن الله تعالى مطلع عليها فهو جلّ وتعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩] و﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه:٧].

الجهة الثانية: من كون الخاطرة هي شرارة العمل الأولى.

فالقلب لوح والخواطر نقوش تنقش فيه.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما الخطرات فشأنها أصعب فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم.

- فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه.
- ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب.
- ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات.

ويقول في غير هذا الكتاب: «دافع الخطرة فإن لم تفعل صارت فكرة فدافعها فإن لم تفعل صارت همًّا وإرادة فدافع ذلك فإن لم تفعل صار عملًا وسلوكًا فدافع ذلك فإن لم تفعل صار عادة وسجية!!».

من هنا علمنا خطورة الخواطر وأثر مدافعتها وأثر استدعائها.

ولذا كان لابّدُ من إصلاح الخواطر.

وطريق إصلاحها من ثلاث جهات:

الأولى: تفريغ القلب من الخواطر الرديّة بعدم الالتفات أو استدعاء الردي منها.

الثانية: فإذا تفرّغ القلب كان لابّدُ من ملئه: فاملأه وأشغله بالله وبمحبته وهذا الإشغال له خمس طرق:

- الفكرة في آياته المنزلة وتعلقها وفهم مراده منها.
- الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته وإحسانه وبره وقد حض الله على هذا التفكر وذم الغافلين عنه.
- الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة رحمته ومغفرته.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجائه.

فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكرًا وإرادات لذلك.

ولهذا عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كانت تتزاحم عليه الخواطر

في مراضي الرب تعالى فربما استعملها في صلاته وكان يجهّز جيشه وهو في الصلاة فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة!!.

▪الفكرة في عيوب النفس وآفاتها وفي عيوب العمل، فهذه الفكرة تكسر النفس الأمارة بالسوء وتحيي النفس المطمئنة.

▪الفكرة في واجب الوقت ووظيفته -من مصالح الدين والدنيا-وجمع الهمّ كله عليه.

الثالثة: حماية الخواطر من الحرام والخطيئة: **وذلك بطريقين:**

١ - مفارقة دواعي الحرام ومواطنه الحسّية.

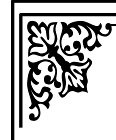
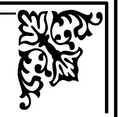
٢ - الموازنة والمقارنة ومعرفة العواقب والمألات.

-وازن بين لذّة الإقبال على الله ولذّة الإقبال على الرذائل!.

-وازن بين لذّة الذنب ولذّة العفة!.

-وازن بين لذّة الانتصار على الشيطان وقهره ولذة الظفر بالمعصية والخطيئة!.

وهكذا وازن وتذكّر العواقب والمألات فإن ذلك مما يحمي الخواطر من أن تستدعي الحرام الردي.

الخطوة الثامنة

حاسب نفسك

هل خلوت بنفسك يومًا فحاسبتها عما بدر منها من الأقوال والأفعال؟

وهل حاولت يومًا أن تعد سيئاتك كما تعد حسناتك؟

بل هل تأملت يومًا طاعاتك التي تفتخر بذكرها؟!.

فإن وجدت أن كثيرًا منها مشوبًا بالرياء والسمعة وحظوظ النفس.

فكيف تصبر على هذه الحال، وطريقك محفوف بالمكارة والأخطار؟!.

وكيف القدوم على الله وأنت محمل بالأثقال والأوزار؟

قال الله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر:٥٤].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإن أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية».

عبادة وخشية: وقد مدح الله تعالى أهل طاعته بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون:٥٧-٥٨].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟

قَالَ: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ، وَيُصَلُّونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، صححه الألباني.

هكذا كان سلفنا الكرام، يتقربون إلى الله بالطاعات، ويسارعون إليه بأنواع القربات، ويحاسبون أنفسهم على الزلات، ثم يخافون ألا يتقبل الله أعمالهم.

حق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطواتها، فكل نفس من أنفس العمر جوهرة نفيسة يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد.

فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها ما يجلب هلاكه خسران عظيم، لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا.

وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠].

من فوائد محاسبة النفس:

١- الاطلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته.

٢- التوبة والندم وتدارك ما فات في زمن الإمكان.

٣- معرفة حق الله تعالى فإن أصل محاسبة النفس هو محاسبتها على تفريطها في حق الله تعالى.

٤- انكسار العبد وزلته بين يدي ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

٥- معرفة كرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعفوه ورحمته بعباده في أنه لم يعجل عقوبتهم مع ما هم عليه من المعاصي والمخالفات.

٦- مقت النفس والإزراء عليها، والتخلص من العجب ورؤية العمل.

٧- الاجتهاد في الطاعة وترك العصيان لتسهل عليه المحاسبة فيما بعد.

٨- رد الحقوق إلى أهلها، وسل السخائم، وحسن الخلق، وهذه من أعظم ثمرات محاسبة النفس.






الخطوة التاسعة

قطار العمر

قال الفضيل لرجل: كم أتى عليك؟

قال: ستون سنة.

قال له: أنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تصل!.

وقال أبو الدرداء: إنما أنت أيام، كلما مضى منك يوم مضى بعضك.

فيا أبناء العشرين! كم مات من أقرانكم وتخلفتم؟!

ويا أبناء الثلاثين! أصبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم؟

ويا أبناء الأربعين! ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتم!!

ويا أبناء الخمسين ! تنصفتم المائة وما أنصفتم!!

ويا أبناء الستين! أنتم على معترك المنايا قد أشرفتم.

أتلهون وتلعبون؟ لقد أسرفتم!

وقال ﷺ: «أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»(١).

كان توبة بن الصمة من المحاسبين لأنفسهم فحسب يومًا، فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال:

«يا ويلي! ألقى ربي بأحد وعشرين ألف ذنب؟

كيف وفي كل يوم آلاف من الذنوب؟ ثم خر مغشيًا عليهن فإذا هو ميت، فسمعوا قائلًا يقول: «يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى».

أخي المسلم:

- كم صلاة أضعتها؟
- كم جمعة تهاونت بها؟
- كم صيام تركته؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩).

- كم زكاة بخلت بها؟
- كم حج فوته؟
- كم معروف تكاسلت عنه؟
- كم منكر سكت عليه؟
- كم نظرة محرمة أصبتها؟
- كم كلمة فاحشة تكلمت بها؟
- كم أغضبت والديك ولم ترضهما؟
- كم قسوت على ضعيف ولم ترحمه؟
- كم من الناس ظلمته؟
- كم من الناس أخذت ماله؟

قال رسول الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا دِينَارَ وَلَا مَتَاعَ،: «**الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ**

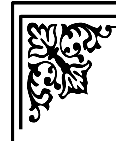
هَذَا، فَيُقْتَصُّ لِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَلِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١).

- إنا لنفرح بالأيام نقطعها.
- وكل يوم مضى يدني من الأجل.
- فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدًا.
- فإنما الربح والخسران في العمل.

أصلح الأمور مادامت في الحياة: فالأمر خطير جدًا، كل بني آدم خطاء، لكن في الدنيا اعتذار، وتعويض، وهدية، والهدية تذهب بوحر الصدر، والاعتذار مقبول، والخطأ المالي تدفع المبلغ، فما دمت في الدنيا فكل شيء له حل، أما إذا توقف القلب ختم العمل، فكل بني آدم خطاء، لكن بطولتك أن تعتذر، وأن تحاسب نفسك حسابًا عسيرًا ليكون حسابك يوم القيامة يسيرًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٤).




الخطوة العاشرة

كن هكذا عند الزلة

يصور عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفس المؤمن حين يواقع الخطأ هذا التصوير فيقول: «لنفس المؤمن أشد ارتكاضًا من الخطيئة من العصفور حين يقذف به».

فكم هو شاسع الفرق بين ما يراه عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خطيئة وبين ما نراه نحن كذلك.

وقد ينصرف نظر المرء إلى صغر الخطيئة فينبه بلال ابن سعد إلى هذا المسلك إذ يقول: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظم من عصيت».

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ [النور: ١٥].

كثيرا ما نستهين بصغائر الذنوب، وننسى أنها قد تجتمع على الرجل فتهلكه، وقد انتشر بين الناس كثيرا أن الذنب مادام

صغيرا فلا خوف ولا حمل لهمه فإنه ولاشك ذاهب وهو مكفر بالطاعة.

فكم من الناس يرتكب أُمورًا يظنها هينة!.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإصرار على الصغيرة قد يساوي إثمه إثم الكبيرة أو يربى عليها».

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أصر الإنسان على الصغيرة وصار هذا ديدنه صارت كبيرة بالإصرار لا بالفعل».

صحيح أن الذنوب الصغيرة بالفعل تكفر بالطاعات وباجتناب الكبائر مع التقوى، قال سبحانه: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١].

لكن هناك أمورا ذكرها العلماء تعظم بها الصغائر وتكبر ويثقل اثرها على قلب المرء ونفسه حتى تهلكه وحتى تكبه على وجهه،

كما أخبر ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ

عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»(١).

ومُحقَّرات الذنوب ليست كبائر كالسرقة والزنا والقتل.

ولكنها التي يستصغرها الإنسان ولا يستعظمها وهي -مُحقَّرات الذنوب- باب عظيم من الأبواب التي يدخل منها الشيطان،

وهي عند الله تعالى عظيمة، يفعلها الإنسان لا يلقى لها بالًا فتجتمع عليه حتى تُهلِكه.

لذلك حذَّر ﷺ منها: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ تُعْبَدَ الْأَصْنَامُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ، بَالْمُحَقَّرَاتِ وَهِيَ الْمُوبِقَاتُ»(٢).

ورضي الله تعالى عن عبد الله بن مسعود لما كان يعظ كبار التابعين لأصحاب رسول الله قائلًا: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر كُنَّا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات» أي: المهلكات.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، صححه الألباني.

(٢) صححه الألباني

وإذا كانت هذه موعظة ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لكبار التابعين وهم من هم عِبادة وعِلمًا فكيف لو رأى ابن مسعود حالنا اليوم؟!.

كيف لو رأى رجلًا يتهرَّب من مُحصِّل المواصلات.

أو رأى من يمزح مع زميلته في العمل بكلامٍ يخدش الحياء؟!.

أو رأى امرأة تلبس عباءة تحتاج إلى عباءة أخرى تسترها.

ومثل ذلك كثير جدًا.

﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٥].

قال ﷺ، قال لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، لما قالت يا رسول الله: حسبك من صفية كذا وكذا -تعني: أنها قصيرة- قال لها: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**»(١).

يعني: «غيَّرت لونه أو طعمه أو ريحه».

وقال رسول الله ﷺ: «**بينما رجلٌ يجرُّ إزارَه من الخُيلاءِ**

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٦٥) صححه الألباني.

خُسِف به، فهو يتجَلْجَلُ في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ»(١).

وختامًا: إذا كانت مُحقَّرات الذنوب تهلك المرء فما بالك بكبائر الذنوب.

أخي: إن آدم أُخرِج من الجنة بلقمة أكلها، وإبليس دخل النار بسجدة تركها،

فإياك؛ ثم إياك من مُحقَّرات الذنوب ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥].

فإن استعظام الذنب -أخي الكريم- يتولد منه لدى صاحبه استغفار وتوبة، وبكاء وندم، وإلحاح على الله عَزَّوَجَلَّ بالدعاء وسؤاله تخليصه من شؤمه ووباله.

وما يلبث أن يولد دافعًا قويًا يمكِّن صاحبه من الانتصار على شهوته والسيطرة على هواه.

أما أولئك الذين يحتقرون الذنب فيشعر أحدهم بالندم ويعزم على التوبة، لكنها عزيمة ضعيفة سرعان ما تنهار مرة أخرى أمام دواعي المعصية.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٥)، مسلم (٢٠٨٨).




الخطوة الحادية عشرة

إياك ومحقرات الذنوب

ويلحق بما مضى من استعظام الذنب؛ الخوف من محقرات الذنوب، فيحذر منها ﷺ ويضرب لها مثلًا بليغًا.

قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكم ومُحقِّراتِ الذُّنوبِ، كقوم نزلوا في بطنِ وادٍ ، فجاء ذا بعُودٍ، وجاء ذا بعُودٍ، حتَّى أنضجوا خبزتَهم، وإنَّ مُحقِّراتِ الذُّنوبِ متى يُؤخذُ بها صاحبُها تُهلِكُه»[١].

وقال ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣٠٢)، صححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، صححه الألباني.

وهو تشبيه بليغ من أفصح الناس ﷺ؛ لشؤم اجتماع الذنوب على العبد، فالعود لا يصنع شيئًا والثاني كذلك... لكنها حين تجتمع تصبح حطبًا يشعل النار وينضج العشاء.

ولهذا يوصي ابن المعتز بذلك مقتبسًا هذا المعنى:

- خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى.
- واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى.
- لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى.

ويحذر ﷺ زوجه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من ذلك قائلًا لها: **«يا عائشةُ، إيَّاكِ ومُحقَّراتِ الأعمالِ فإنَّ لها مِن الله طالبًا»**[1].

وفي حديث عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع للناس: **«أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟... إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ فِي بِلَادِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيمَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَسَيَرْضَى بِهِ »**[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤١٥)، صححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٥٣)، حسنه الألباني.

وصايا السلف: وتتكرر وصايا سلف الأمة في التحذير من المحقرات وبيان خطورة ذلك على المرء.

قال كعب: «إن العبد ليذنب الذنب الصغير ولا يندم عليه ولا يستغفر منه، فيعظم عند الله حتى يكون مثل الطود؛ ويعمل الذنب العظيم فيندم عليه ويستغفر منه، فيصغر عند الله عَزَّوَجَلَّ حتى يغفر له».

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بقدر ما يصغر الذنب عندك كذا يعظم عند الله وبقدر ما يعظم عندك كذا يصغر عند الله».

وعن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «من عمل حسنة وإن صغرت أورثته نورًا في قلبه، وقوة في عمله، وإن عمل سيئة وإن صغرت فاحتقرها أورثته ظلمًا في قلبه وضعفًا في عمله».

وعن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن الرجل ليعمل الحسنة يتكل عليها، ويعمل المحقرات حتى يأتي الله وقد أخطرته، وإن الرجل ليعمل السيئة فيغرق منها حتى يأتي الله آمنًا».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا عرف هذا فاستقلال العبد المعصية عين الجرأة على الله، وجهل بقدر من عصاه، وبقدر حقه؛ وإنما كان مبارزة لأنه إذا استصغر المعصية واستقلها هان عليه أمرها، وخفت على قلبه؛ وذلك نوع مبارزة».

فكم من كلمة لا نلقي لها بالًا:

سخرية بمسلم أو همز له، أو وقوع في عرضه.

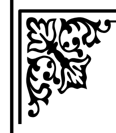
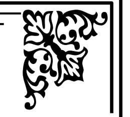
أو كلمة غير صادقة، نضيف لها نظرة عابرة.

وتقصيرًا في واجب لا نعبأ به.

وهكذا حتى يتولد منها سيل جارف. وبعد ذلك نسأل:

لماذا قلوبنا قاسية.



الخطوة الثانية عشرة

إياك و المجاهرة

لا تجاهر: كما أن الطاعات تتفاوت مراتبها ودرجاتها بحسب الأعمال ذاتها، وبحسب العامل والوقت والسر والجهر؛ فكذلك المعاصي!

فقد دلّت النصوص على أن المعصية التي يستتر بها صاحبها أخف جرمًا من التي يعلنها.

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المجاهرون وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ فَيَقُولُ يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ»(١).

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رجلًا سأله كيف سمعت

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، مسلم (٢٢٦).

رسول الله ﷺ يقول في النّجوى؟ قال: «**يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: عَمِلْتُ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: قَدْ سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»(١).

فحين يبتلي الله أحدًا من عباده فتغلبه نفسه الأمارة بالسوء ويدعوه هواه لمقارفة معصية، وارتكاب حرمة وقد خلا عن الناس وأرخى على نفسه الستار، حينها فعليه أن يستتر بستر الله ولا يهتك هذا السياج.

عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان شهد بدرًا، وهو أحد النقباء ليلة العقبة- أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «**بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بين أيديكم وَأَرْجُلِكُمْ وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٠)، مسلم (٢٧٨٦).

وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ»[١].

إن المؤمن الذي يخاف من مولاه ويعظمه ويخشى عقابه، تلومه نفسه على المعصية وتحرق فؤاده، فكيف يحدّث الناس أنه يعمل... ويعمل.

وقد أشار ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى معنى لطيف في الاستسرار بالمعصية وأن هذا الاستسرار طاعة لله، وان معافاة الله تعالى للمستتر بذنبه إنما كان لاستتاره.

إذا كان الإنسان لابّدُ أن يعصي فليستخفِ؛ فإن المجاهرة تعظم الذنب أضعافًا مضاعفة، والعلانية به مصيبة كبيرة، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ»[٢].

قال إبراهيم التيمي: «أعظم الذنب عند الله أن يحدِّث العبد بما ستر الله تعالى عليه، وفي الجهر بالمعصية:

➢ استخفاف بحق الله ورسوله.

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٠٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)

- وعناد للمؤمنين.
- وتكثير لسواد العاصين.
- وتعدية أثر المعصية إلى الغير.
- والتسبب في جرهم إليها وإغرائهم بها.

وكذلك التسبب في تأثيم من لم ينكر؛ لأنه يرى المجاهرة، لذلك إذا ستر نفسه فإنه أهون مع أن الكل يأثم، ويستحق العقوبة، وليتذكر العاصي الحديث القدسي:

«إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ».

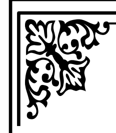
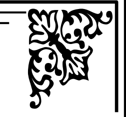
والمستخفي أقرب إلى التوبة ويوفق للتوبة ما لا يوفق المستعلن.

ونحن اليوم ابتلينا في زمن الإستعلان بالمعاصي، والمجاهرة بالمعاصي، وكتابة التحقيقات الصحفية عن المعاصي».

وهذه مصيبة عظيمة والله، حيث صارت المعاصي تمثل تمثيلًا وتصور تصويرًا، وتبث على الملأ وتعلن في القنوات، ويتباهى بها على الشاشات، وتوضع على الشبكات، ويُتحدث

بها في المواقع والمنتديات، فمن بارز بالقبيح فإنه يحارب من هو أقرب إليه من حبل الوريد، لذلك على الإنسان إذا غلبت عليه شهوته وسيطر عليه شيطانه أن يستتر.



الخطوة الثالثة عشرة

ماذا عملت البارحة

احذر من قول: «يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا».

ومن هذا الباب؛ ما يسلكه بعض من الشباب حين يلقى صفيه وأخاه فيحدثه لا مفاخرًا ومبارزًا لله بالعصيان؛

بل مغلفًا ذلك بغلاف الشكوى ومعللًا بعلة السؤال عن الحل والبحث عن المخرج.

وهذا المسلك علاوة على ما فيه من مخالفة الأدب الشرعي، وهتك لستر الله فهو تكريس للقدوة السيئة أو تهوين للمعصية أمام الآخرين.

فحين يصاب صاحبه بالداء نفسه فيقارفها أو غيرها يلتمس العزاء والعذر لتقصيره بتذكير نفسه أن فلانًا يواقعها، وأن كثيرًا من الشباب كذلك إن لم يكن عامتهم.

هذا ما يقوله بلسان حاله، إن لم يكن بلسان مقاله.

وعلاوة على المجاهرة والقدوة السيئة، فصاحبه حين يقارف هذه المعصية سيبادله الشكوى، ويشاركه النجوى فيشتركان مبدأ الأمر في التشاكي والتألم، ثم تتحول القضية إلى تعاون على الإثم والعدوان ومشاركة في العصيان.

وكم كان هذا المسلك سببًا في انحراف البعض من الشباب بعد استقامتهم وضلالهم بعد هدايتهم.

وقد يدخل ضمن باب عملت البارحة، شكوى الشاب لمن هو فوقه سنًا وعلمًا ممن يراه في مسائه وصباحه، وهي وإن كانت شكوى للعلاج والاستفتاء إلا أنها خلاف الآداب الشرعية ومنطق الحياء الذي لا يأتي إلا بخير.

وما تلبث الأيام أن تدور دورتها ويفارق الأخ صبوته، ويتخلى عن معصية مولاه، فيشعر أن هذه الصورة قد نقشت في ذاكرة صاحبه وستبقى لا تمحوها الأيام ولا يطمرها النسيان.

ولهذا جاء التوجيه النبوي الكريم في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَاذُورَةَ الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا فَمَنْ أَلَمَّ

فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ وَلْيُتُبْ إِلَى اللهِ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِلْنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»(١).

وكما مر بنا في الخطوة السابقة حديث الاستتار لمن وقع في شيء من الذنوب والآثام، وهو قوله ﷺ: « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَانَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ، فَيَقُولَ يَا فُلاَنُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ»(٢).

وهذا يدل على أنه ينبغي للمؤمن أن يستتر بستر الله، ولا يفضح نفسه، ولهذا لما جاء ماعز إلى النبي ﷺ يقول أنه زنى أعرض عنه النبي ﷺ مرات لعله يتوب ويستغفر ويرجع حتى لا يتظاهر بهذا الأمر العظيم.

فالمقصود أن الإنسان مأمور بالستر والتوبة إلى الله، وعدم إبراز معصيته وإظهارها للناس، ومن تاب تاب الله عليه، ولهذا يقول ﷺ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).

---

(١) صححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، مسلم (٢٩٩٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٣١٠) ، مسلم (٢٥٨٠).

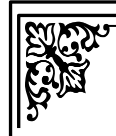
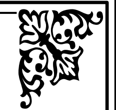
فالمؤمن يستر نفسه ولا يعلن معصيته، هذا هو المشروع له أن لا يبديها للناس، وأن لا يذهب إلى الحاكم، بل يستتر بستر الله، وليتب إلى الله، وليستغفر الله، ويكفي والحمد لله، هذا هو المشروع.

أما ما نقل من مجيء بعض أصحاب النبي ﷺ له شاكين وقوعهم في بعض الذنوب فهي حالات خاصة فالقاعدة خلاف ذلك؛ ثم يبدو من سياق بعض هذه الأحداث أن الرجل ربما كان يجهل أن له توبة، أو يسأل عن الكفارة وماذا يلزمه.

بل وفي بعض هذه الحوادث إنكار أصحاب النبي ﷺ على السائل وأمره بالاستتار مما يدل على أن هذا هو الأصل المتقرّر لديهم وما يخرج عن ذلك كله يبقى حالة خاصة لا تشغب على القاعدة العامة.

فالأولى بالشاب حين يبتلى بالمعصية أن يستتر بستر الله، وأن يجاهد نفسه على ترك المعصية ما استطاع.



الخطوة الرابعة عشرة

إياك وما يُعتذر منه

كثير منا اليوم (ولا أُبرئ نفسي)؛ في غفلة ظاهرة بينة عما أرشدنا إليه ربنا جَلَّ وَعَلَا؛ ووجهنا إليه نبينا ﷺ؛ من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة!.

آيات وأحاديث كثيرة؛ نغفل عنها أو نقصر في معرفتها ومن ثم نخفق في تطبيقها؛ فلا يكون لنا منها الخير والفلاح الذي وُعد به من عمله.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني، قال ﷺ: «**عَلَيْكَ بِالْإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ، وَإِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ**»(١).

وذكره بلفظ «ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدا» في السلسلة الصحيحة.

---

(١) حسنه الألباني رحمه الله تعالى.

الشاهد: أن هذا الحديث: «إياك وما يعتذر منه».

«ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدا»؛ يجعل العبد يقف مع نفسه كثيرا قبل أن يقول أو يعمل ما ينوي فعله أو قوله، فيكون كالمحاسبة للنفس قبل الفعل.

ومعناه: لا تعمل عملًا أو تقول قولًا؛ يدعوك بعده إلى الاعتذار، أي: لا تخطئ فتحتاج إلى أن تعتذر.

قال المناوي: «أي احذر أن تتكلم بما يحتاج أن تعتذر عنه، وأنه لا ينبغي الدخول في مواضع التهم، ومن ملك نفسه خاف من مواضع التهم أكثر من خوفه من وجود الألم».

نعم صحيح: الاعتذار خلق جميل يدل على تواضع الإنسان وإنصافه من نفسه حيث عرف خطأه وعمل على إصلاح ما أفسده، فهو كما قال المناوي: «أن يتحرى الإنسان ما يمحو أثر ذنبه».

فصاحب الخلق الرفيع يراعي مشاعر الآخرين ويهتم بأحوالهم ومكانتهم، فإذا صدر منه شيء قد يسيء إليهم أو يؤذيهم بادر إلى الاعتذار ممن وقع الخطأ في حقه، وطلب العفو

منه أو بين له مقصوده فيما صدر منه حتى لا يساء فهمه أو يعامل بنقيض قصده؛ فبذلك تستدام الأخوة الإيمانية ويغلق باب المشاحنات والخصومات وما يتبع ذلك من إفساد وإضرار وتفرق وعداء.

والأكمل من الاعتذار هو ألا يقع الإنسان فيما يوجب الاعتذار أصلًا.

فيحفظ لسانه وجوارحه عن الإساءة إلى الناس ابتداء،

ويحرص على التزام الاستقامة في القول والعمل، مع الله عَزَّوَجَلَّ ومع الناس ومع كل من له حق عليه،

ويراعي أن يكون دائمًا متنبها لشعور الآخرين دون مبالغة، متخليا عن الأنانية والفردية التي تحكم سلوك بعض الناس فتجعلهم يعيشون في دنياهم الخاصة بهم متناسين وجود الآخرين الذي لهم حقوق ومشاعر أيضا تحتاج إلى عناية ورعاية واهتمام ومراعاة.

فقد نهانا الله عَزَّوَجَلَّ عن إيذاء المؤمنين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا

وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨] وقال: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ**»(١).

وكما يحب الإنسان أن يهتم الناس بحقوقه ومشاعره فعليه أيضا أن يقوم بذلك، قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٢).

وبالمقابل أن يكره لأخيه ما يكره لنفسه، وبالله التوفيق.



---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢)، حسنه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).




الخطوة الخامسة عشرة

تفكر قبل أن تعصي الله

إذا كان العبد لابّدُ أن يرتكب معصية وهو سيفعلها فليتفكر في أمور:

أن يدافعها ما أمكنه وأن يسوّف في المعصية كما أن إبليس حريص على أن يسوّف الطاعة على ابن آدم.

سُئِلَ عُمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «عَنْ قومٍ يَشتهُون المَعصيّةَ ولَا يَعملُون بهَا؟».

فَقَالَ: «أولئكَ قَومٌ امتحَن اللهَّ قُلوبَهم للتَّقوى لهُم مَغفرةٌ وأجرٌ عَظيم».

إن كان لابّدُ أن يعصي فليجتنب المعصية المتعدية؛ فإن الذي يقتصر شرُّه على نفس العاصي أهون من الذي يتعدى شرُّه إلى غيره، فقد يفعل إنسان معصية بينه وبين الله شرُّها عليه، ويفعل عصاة آخرون معاصٍ فيها تعدٍّ إلى أعراض الناس

وأموال الناس ونفوس الناس.

إن كان ولابُدّ أن يعصي فليكن وحده، وليجتنب المعصية المشتركة، والتعاون مع غيره على المعصية؛ قال الله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢] فالمعصية الجماعية أقرب إلى الفضيحة والذيوع، وتقتل الحياء؛ لتواطؤ العدد على فعلها وهذا يساعد على نشرها وازديادها، ومن هذا تكوين العصابات.

حذارِ من فعل المعصية في الأزمنة الفاضلة والأمكنة الفاضلة؛ لأن ذنب المعصية في الزمان الفاضل -كالأشهر الحرم- والمكان الفاضل -كالبلد الحرام- يضاعف الذنب ويضاعف السيئة، فالذين يسرقون الحجاج والعمار، وفي الحرم وعند الكعبة، والذي ينظر النظرة المحرمة أثناء الطواف وربما يعبث بالأعراض في الحرم، أو يسافر للفاحشة في رمضان، أو يفعل هذا في مسجد؛ لا شك أن سواده أعظم، وأن شؤمه أشدّ؛ قال شيخ الإسلام: المعاصي في الأيام المفضلة والأمكنة المفضلة -أي عند الله- تُغَلَّظ وعقابها بقدر فضيلة الزمان والمكان.

لا تفعل المعصية لمجرد التجربة، فبعض أهل الذنوب

يُدعون إليها ولا يكون لهم بها سابق عهد ولا كان لهم بها لذة من قبل، فيدخلون المعصية من باب التجربة ثم يستمرِؤونها فيتلذذون بها أو تصبح لهم عادة فيصعب إقلاعهم عنها.

لا تفعل المعصية التي لا تتعلق بها نفسك كثيرًا، فإن بعض الناس يعصي وداعي العصيان ليس قويًا، ولا شك أن الداعي إذا كان أقل إلى المعصية كان الإثم أكبر، ألا ترَ إلى النبي ﷺ حيث قال عن الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: «ملك كذاب وعائل مستكبر وشيخ زانٍ»؟ فالعائل هو الفقير، ما الذي يدعوه للكبر؟ ومع ذلك يتكبر، فإذن: هذا كبر متأصِّل متجذِّر فيكون إثمه أشدّ من إثم الذي عنده ما يدعوه الكبر كالحسب والمال والقوة والمنصب؛ وكذلك المَلِك، ما الذي يدعوه ليكذب وعنده السلطان والقوة؟ لذلك كان كذبه أشدّ، وكذا الشيخ الزاني عقوبته أشد من الشاب الزاني من هذا الباب.

لا يزين المعصية لغيره، ولا يدلُّ عليها أحدًا، ولا يعلِّم غيره بها، وإلا كان مروِّجًا لتلك البضاعة العفنة متسببًا لوقوع

غيره في الشر، وإلا فسيحمل أوزاره وأوزارًا مع أوزاره من أوزار الذين اقتدوا به، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[(١)].

من أراد أن يعصيَ فليعصِ على خوف؛ فبعض الناس يعصي على اجتراء غير مبالٍ ولا يأبه باطلاع الله عليه.

قال عمر بن ذر: يا أهل المعاصي، لا تغتروا بطول حلم الله عنكم، واحذروا أسفه؛ فإنه قال: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزُّخرُف:٥٦] أي: لما أغضبونا انتقمنا منهم.

أن يحافظ على سلامة المعتقد والتوحيد، فبعض الناس تسوقه المعصية إلى البدعة ثم إلى الشرك والكفر، وبعض الذين ابتعثوا إلى الخارج تنصَّروا، وبعضهم ألحد وكفر بالله وبكل الأديان؛ ينتقلون من بيت مسلم من مكان فيه أذان وصلاة

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

وشيء يذكر بالدين إلى بلد كفر، وكبائر، وتمرد على الله، وإلحاد، وزندقة، وصليب، وشياطين يدعونهم إلى كل فاحشة، فيصبح في الملاهي والمراقص، ثم بعد ذلك تجره هذه إلى الانخلاع من ربقة الدين والانسلاخ مما كان فيه من أصل الإيمان والتوحيد، وهذا بسبب استمراء المعاصي.

لا تبغض الطائعين وإن كنت مفرطًا في الطاعة، بل ليبقى الحب والبغض شرعيًا:

- أحب الصالحين ولست منهم.
- وأكره من تجارته المعاصي.
- لعلي أن أنال بهم شفاعة.
- ولو كنا سواء في البضاعة.






الخطوة السادسة عشرة

فارق دواعي المعصية

حين تكون جادًا في التخلي عن المعصية ومفارقتها فإن إغلاق الأبواب وسد المنافذ هي أقصر الطرق إلى مفارقة المعصية.

وهذا المعنى هو الذي فطن إليه من قيل عنه إنه أعلم أهل الأرض حين سأله الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا وكمل بالراهب المائة، فقال له هذا العالم: «نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَّ فَاعْبُدْ اللهَّ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ»[١].

لقد كان هذا العالم ربانيًا ومفتيًا بحق، فهو لم يكتف بإخباره أن له توبة بل دله على الطريق الموصل لها.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦٦).

وأدرك هذا العالم أن الرجل لو بقي في بلده وقريته فسوف يعود إلى معصيته، وأنه لا يمكن أن يتخلى عن المعصية إلا حين يتخلى عن قريته ويفارقها.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وفيه فضل التحول من الأرض التي يصيب فيها الإنسان المعصية لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك، إما لتذكّره لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها، وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويحضّه عليه، ولهذا قال له الأخير: ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء؛ ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية، والتحول منها كلها، والانشغال بغيرها»[(١)].

قال الفقهاء ولأجل هذا المعنى حكم الشرع بتغريب الزاني عن بلده سنة ليفارق موطن المعصية، وما يدعوه لها.

والحازم الحصيف حين يشعر أن معصية من المعاصي تراوده الفينة بعد الفينة يفكر في نفسه مليًا، ويتأمل ما الأسباب

---

(١) فتح الباري (٦/ ١٨).

والعوامل التي توقعني في هذه المعصية:

١- إن كانت صحبة فلان من الناس واللقاء معه فلأفارقه قدر ما أستطيع.

٢- وإن كانت الخلوة والوحدة فلأجتنبها وأقلل منها ما أمكنني ذلك.

٣- وإن كانت الخروج للسوق، أو رؤية مشهد في التلفاز، أو قراءة في مجلة، فرغبتي في ترك المعصية ينبغي أن تولد عندي ترك ذلك أولًا.

٤- وإن كان تفكيري في المعصية هو الشرارة التي تشعل فيَّ نارها، فلأجتنب هذا التفكير وأشتغل بما هو أولى منه.

النفس فيها دواع للمعصية، ونوازع للشهوة، وتمر بها أوقات غفلة وضعف وفترة؛ فما لم تأخذها بالحزم وتبعدها عن مواطن المعصية أوشكت أن تغلبك.

أرأيت لو أن رجلا يمسك بزمام دابة وهى ترى المرعى أمامها ألا تنازعه إليه وربما غلبته على نفسه، وأنه لو نأى بها كان أسلم له.

ولهذا يوصي ﷺ أصحابه بالبعد عن أبواب المعصية وطرقها فيقول لهم: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»[(١)].

فتأمل -رحمك الله- لما كان الجلوس في الطريق سببًا للوقوع في المخالفة والمعصية نهاهم عن الجلوس في الطريق ابتداءً.

وقد ذكر ﷺ أن من علل هذا النهي إطلاق النظر إلى ما حرم الله.

بل كانت المرأة حين تجوز في الطريق تلتصق بالحائط مع تسترها وحيائها.

لما ورأى ﷺ اختلط الرجال مع النساء في الطريق، قال للنساء: «اسْتَأْخِرْنَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ عَلَيْكُنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٣٣)، مسلم (٢١٢١).

بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ فَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ»[1].

➤إن المعصية ليست وليدة الفجأة والمصادفة!.

➤إنما لها مقدمات وأسباب إذا حصلت حصل نتاجها.

➤وإن إلف العبد وتساهله في ارتياد مواطن المعاصي والذنوب يورث عنده فتورًا عن الورع والحزم والعزم.

كما يورث في نفسه إقبالًا على المعصية والخطيئة وبُعدًا عن التوبة والأوبة.

ومن هذا الباب ثبت النهي عن ارتياد مواطن العذاب والإهلاك.

فارق دواعي المعصية: صديقًا كان أو مجلة أو شريطًا أو رقمًا في هاتف أو فلمًا أو مسلسلًا أو ناديًا أو مجلسًا أو آلة!.

واجعل بينك وبين أرباب الذنوب والمعاصي عزلة شعورية، إن لم يمكنك العزلة الجسدية على حدّ قوله جلّ وتعالى: ﴿ وَإِذَا

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٧٢)، حسنه الألباني.

رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].






الخطوة السابعة عشرة

لا تعير غيرك بالذنب

كان في بني إسرائيل كما روى أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ رجلان متواخيان

«فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الأخر على الذنب؛ فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب فقال له: أقصر؛ فقال: خلني وربي، أبعثت علي رقيبًا؟!.فقال: والله لا يغفر الله لك -أو: لا يدخلك الله الجنة- فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟!.أو كنت على ما في يدي قادرًا؟! وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار» قال أبو هريرة: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[١].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، صححه الألباني.

والكلمة التي أوبقت دنيا العبد وأدخل النار لأجلها ليست هي قوله أقصر وإنكاره عليه، إنما هي تأليه على الله وقوله: إن الله لن يغفر لك.

ومر أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على رجل قد أصاب ذنبًا فكانوا يسبونه، فقال: «أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟!. قالوا بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا أفلا تبغضه؟!. قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي».

إذًا فما يقوم به بعض من الشباب من انتقاد فلان أنه يقع في هذه المعصية، ويفعل هذا الأمر أو ذاك، من باب التعيير.

والأولى بالمسلم أن ينشغل بعيب نفسه ويخشى ذنوبه؛ ويشعر أن واجبه تجاه أخطاء غيره يقف عند حد المناصحة والستر والدعاء لهم وسؤال الله العافية.

إن هذا المسلك برهان على إفراط صاحبه في ثقته بنفسه، وتزكيته لها؛ والغرور بوابة من بوابات الهلاك، وأمارة من أمارات إحساس العبد باستغنائه عن معونة مولاه وهو سبب

لأن يوكل المرء لنفسه.

وأين هذا مع هدي أعرف الخلق بالله الذين كان يقول أحدهم:

١ - ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:٧٤].

٢ - والذي يقول: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

٣- والثالث حين يقول لمولاه، بعد أن حطم الأصنام واحتمل في ذلك ما احتمل: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

٤- أما محمد ﷺ فكان من دعائه: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١).

وتعييرك لأخيك فيه صولة الطاعة وتزكية النفس وشكرها والمناداة عليها بالبراءة من الذنب. وأن أخاك باء به، ولعل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٨٩٨)، حسنه الألباني.

كسرته بذنبه وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله، ناكس الرأس خاشع الطرف منكسر القلب أنفع له وخير من:

- صولة طاعتك، وتكثرك بها والاعتداد بها والمنة على الله وخلقه بها.
- فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله!.
- وما أقرب هذا المدل من مقت الله.
- فذنب تذل به لديه، أحب إليه من طاعة تدل بها عليه.

وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا، وتصبح معجبًا.

فرفقًا أيها الناس، رفقا بالمذنبين؛ لا تعيّروهم، أو تقنّطوهم.

بل افتحوا لهم باب الأمل بالله، والرجاء به، والتوبة والأوبة إليه!.

لماذا يستنكر الناس وقوع بعضهم في المعاصي؟! خاصة في صفوف ذوي الهيئات من الناس،

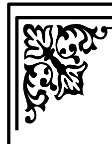
فما والله هم بأفضل من صحابة رسول الله ﷺ؛ ورضى الله عنهم فقد علمنا أن فيهم من زنا؛ ومن سرق؛ ومن شرب الخمر، ومن جسّ عليهم، بل ومنهم من ارتدّ عن الإسلام إلى الكفر ثم آمن!!.

هؤلاء وهم أطهر الخلق بعد الأنبياء وقعوا في مثل هذه الذنوب والمعاصي!.

فهل يعي الناس أن الناس سواء في هذا الباب -أعني في باب الوقوع في المعاصي والذنوب-!!.

صحيح أن الذنب من العظيم عظيم؛ لكن ذلك لا يجعلنا نؤيّسهم أو نقنّطهم أو نعين الشيطان عليهم في إبعادهم عن طريق النور والهدى، الطريق الذي يوصل إليه، أستغفر الله.






الخطوة الثامنة عشر

فلا تقعد معهم

ليس للمسلم أن يجلس مع من يتظاهرون بالمعاصي، بل يجب الحذر منهم، والبعد عنهم لئلا يصيبه ما أصابهم،

ولئلا يفعل فعلهم، إلا إذا حضر للإنكار والدعوة، بأن وقف عليهم ودعاهم ونصحهم بالأسلوب الحسن فإن استجابوا وإلا انصرف فلا بأس.

أما الجلوس معهم لا، فالله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨]؛ فالله نهى عن القعود بعد الذكرى مع القوم الظالمين، فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين.

لأنه قد يميل إليهم، قد يفعل مثل فعلهم، فالواجب الحذر.

لكن إذا وقف عليهم للدعوة إلى الله والتوجيه إلى الخير وإنكار المنكر بالأسلوب الحسن و النصيحة لعل الله يهديهم بأسبابه لعلهم يستجيبون فهذا أمر مطلوب، وإن استطاع ذلك، وظن أنه ينفع وجب عليه لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩] ؛ وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:٢١].

فالمقصود أن الله جَلَّ وَعَلَا شرع لنا التذكير والدعوة، فإذا أمكنك أن تدعوهم إلى الله، وأن ترشدهم إلى الخير، وأن تحذرهم من الباطل، فأنت على خير عظيم، أما الجلوس معهم فلا.

فإن المسلم منهي عن شهود المجالس التي يعصى الله عَزَّوَجَلَّ فيها، إلا إن كان قادرا على إزالة المنكر، قال سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠].

قال القرطبي في تفسيره: «فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر؛ لأن من لم يجتنبهم، فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا

مِّثۡلُهُمۡ﴾ فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم، يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم، فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية. اهـ.

وقال ابن تيمية: ولا يجوز لأحد أن يشهد مجالس المنكرات باختياره بغير ضرورة، ورفع إلى عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قوم شربوا الخمر فأمر بجلدهم، فقيل فيهم فلان صائم، فقال: به ابدؤوا، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ فجعل حاضر المنكر كفاعله. اهـ.

وقال ابن عثيمين: الجلوس مع أهل المنكر مع استطاعة الإنسان أن يقومَ، مشارك لهم في الإثم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾.

يعني: إن قعدتم فأنتم مثلهم، ولا يحل لأحد أن يقعد مع

أهل المنكر، إلا إذا كان في خروجه ضرر، أما مجرد أن يَغْضَب أهله أو ما أشبه ذلك، فهذا ليس بعذر، فلو كان أهله مثلًا يفتحون التلفاز على شيء محرم ونهاهم؛ ولكن لم ينتهوا وجب عليه أن يقوم، فإذا قال: إن قمتُ يزعل عليَّ أبي، أو أمي، أو الزوجة أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يجوز أن يبقى، بل يجب أن يقوم ولو غضبوا؛ لأن التماس رضا الناس بسخط الله، يعني تقديم ما يرضاه الناس، على ما يرضاه الله -والعياذ بالله-.اهـ.

لا يخفى أن على المرء أن يحرص على اختيار الصحبة الصالحة التي تقربه من الله، وتذكره إن غفل، وتعينه إن ذكر، وأن يتجافى عن رفقاء السوء، فقد قال ﷺ: «**لا تُصَاحِبْ إِلا مُؤْمِنًا وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلا تَقِيٌّ**»[1].

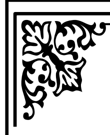
وقال ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[2].

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، حسنه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (٨٣٩٨)، حسنه الألباني.



الخطوة التاسعة عشر



لا تفارق الأخيار

أحيانًا يحدث الشاب نفسه وهو يراها مقيدة بأغلال المعاصي مأسورة بأسرها: كيف أصحب الأخيار وأعاشرهم وأنا ملوث، وأنا عاصٍ، أشعر أنني منافق حين أصاحبهم، إلى غير ذلك من التساؤلات.

وهذه الهواجس إفراز غير طبيعي لضغط الذنب والخطيئة عليه.

ولو تحول ذلك إلى دعوة ملحة للتوبة والإقلاع والندم كان هذا خير وأولى.

ولو تساءل بلغة أخرى ومنطق مخالف فقال:

إن صحبتي للأخيار بحد ذاتها عمل صالح من أفضل الأعمال؛ والحسنة تكفر السيئة. وقد عد ﷺ من يحب أخاه في الله من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

محبة الصالحين سبب للحوق المرء بهم ولو لم يبلغ منزلتهم في العمل: قال ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»(١).

وسأل أعرابي النبي ﷺ متى الساعة؟! فقال ﷺ ماذا أعددت لها؟! قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكن أحب الله ورسوله، قال: «**أنت مع من أحببت**»(٢).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟! فقال رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب**».

فما دام هذا الأمر قد ثبت عن النبي ﷺ فكيف أزهد فيه؟! فلعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يلحقني منازلهم، ويحشرني معهم يوم القيامة، وليكن شعاري.

- أحب الصالحين ولست منهم.
- لعلي أن أنال بهم شفاعة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٠)، مسلم (٢٦٤١).
(٢) أخرجه البخاري (٥١٢٦)، مسلم (٢٧٨٧).

- وأكره من تجارتهم معاصي.
- وإن كنا سويًا في البضاعة.

الناس أصناف ثلاثة:

والصنف الأول: من يأخذ نفسه بزمام التقوى، ويمنعها عن المعصية، فهذا خير وبر ولعل الله أن يبلغني منزلته.

والصنف الثاني: من يأتي معصية الله وهو على وجل وندم، ويشعر أنه على خطر عظيم ويتمنى ذلك اليوم الذي يفارق فيه المعصية.

والصنف الثالث: من يبحث عن المعصية، ويفرح بها، ويندم على فواتها.

فأنا وإن كنت لست من الصنف الأول وأتمنى من الله أن يلحقني به فلأن أكون من الصنف الثاني خير لي وأزكى من أكون من الثالث.

أن الندم والحسرة، والتألـم على المعصية إنما جنيته من الصحبة الصالحة.

وهذه أول بركاتهم وباكورة ثمراتهم، وحين أفارقهم فسوف يخبت هذا الصوت ويقل أثر هذه الملامة للنفس؛ وحينها أنتقل لا سمح الله إلى جحيم المعصية ودركاتها.

إن أولئك الذين لا يصاحبون الأخيار قد لا يشعرون مرة واحدة بالندم ومرارة المعصية.

أما أولئك الذين يصاحبونهم فهم يشعرون بذلك حين يرون إخوتهم ولسان حال أحدهم يقول: كل هؤلاء خير وأطهر مني.

إذًا فصحبتي للأخيار سبب في تألمي من المعصية وهذا بحد ذاته خطوة بإذن الله في طريق التوبة. وهب أني لم أتب، فالذي يفعل المعصية وهو نادم خير ممن يفعلها وهو يضحك.

هب أنى فارقت الأخيار، فهل سيزول ما أشكو منه وأبرأ من داء المعصية؟!.أم أنى سأفقد الدواء فيستفحل الداء.

فالمرء لابّدُ له من صحبة؛ فإن تركت هؤلاء فالبديل هم أولئك الذي أراهم على معاص أكبر مما أفعل فيولد ذلك عندي

الاستهانة بما أنا واقع فيه، بل والتطلع لما هم عليه، ثم لن أسمع منهم موعظة أو أجد منهم تذكيرًا.

إنه لو طرح على نفسه تلك التساؤلات السابقة لخرج بنتيجة مؤداها:

أن وقوعه في المعصية، ومعاناته من شؤمها مدعاة إلى التزود من صحبة الأخيار، والسعي لذلك، لا أن تكون عائقًا ومثبطًا.

إذًا أخي الكريم: خير لك أن تعضّ على هذه الصحبة بالنواجذ بل أنت أحوج ما تكون إليهم، ولأن تبقى محبًا مصاحبًا لهم وأنت على معصيتك خير لك من أن تفارقهم وأنت عليها.

ويجعل ذو النون رَحِمَهُ ٱللَّهُ ملازمة الأخيار من أمارات التوبة، فيقول: «**ثلاثة من أعلام التوبة: إدمان البكاء على ما سلف من الذنوب، والخوف المتعلق من الوقوع فيها، وهجران إخوان السوء وملازمة أهل الخير**»[1].

---

(١) متفق عليه.

إن صحبة الأخيار أفادت من هو دونك ففتية أهل الكهف حين خرجوا صحبهم كلب جرى ذكره في القرآن «فإنه إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جَلَّ وَعَلَا، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين، المخالطين، المحبين للأولياء والصالحين.

بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ.

جالس الأخيار: المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه! ولذلك فإن صحبة الأخيار ومجالستهم مما يقي المرء -بإذن الله- من وضر المعاصي وشؤم الخطيئات.

وكون صحبة الأخيار وقاية تظهر من جوانب:

▪**الجانب الأول**: من جهة أن مجالسة الأخيار حماية من الخلوة والوقوع في أسر الخواطر أو غشيان مواطن المعاصي.

▪**الجانب الثاني**: من جهة توجيههم ونصحهم وإرشادهم:

فإن الأخوة الصادقة تحتّم على المتآخين أن ينصح بعضهم بعضًا وأن لا يزين بعضهم لبعض تقصير الآخر.

فمن هذا الباب الصحبة الصالحة مكمّلة منقّية واقية.

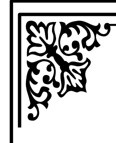
▪**الجانب الثالث:** أن الندم والحسرة والتألم على المعصية إنما تجنيه من الصحبة الصالحة، وهو من ثمرات صحبتهم، وإنك حين تفارقهم فسرعان ما يخبت هذا لصوت ويقل أثر هذه اللامة للنفس!!.

ومن هنا نعلم أن ترك صحبة الأخيار بحجة الذنوب والمعاصي والخطيئات من أعظم مداخل الشيطان وخواطر المعصية.

هب أنك فارقت الأخيار فهل سيزول ما تشتكي من داء المعصية؟!.

أم أنك ستفقد الدواء ويستفحل الداء!.

إن الإنسان لابّدُ له من صحبة الأخيار، فإن هو ترك الأخيار فلمن يذهب! ليس إلاّ إلى من يزيّنون له المعصية ويقحمونه فيها!.

الخطوة العشرون

إذا تكرر الذنب فكرر التوبة

قال ﷺ: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا- فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ- فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -أَوْ أَصَبْتُ- آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ -أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ- آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»(١).

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خياركم كل مُفَتَّن تواب؛ قيل: فإن عاد؟! قال: يستغفر الله ويتوب؛ قيل: فإن عاد؟! قال: يستغفر

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٦٠).

الله ويتوب. قيل: حتى متى؟! قال: حتى يكون الشيطان هو المحسور».

وقيل للحسن: «ألا يستحي أحدنا من ربه؛ يستغفر من ذنوبه ثم يعود ثم يستغفر، ثم يعود؟!»

فقال: «ودّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملوا من الاستغفار».

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خطبته: «أيها الناس، من ألمَّ بذنب فليستغفر الله وليتب، فإن عاد فليستغفر الله وليتب، فإن عاد فليستغفر الله وليتب، فإنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال، وإن الهلاك كل الهلاك في الإصرار عليها».

بل وهذا المعنى داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ

ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١].

وقال النعمان بن بشير في قوله: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، يقول: «إذا أذنب أحدكم فلا يلقين بيده إلى التهلكة، ولا يقولن لا توبة لي، ولكن ليستغفر الله وليتب إليه، فإن الله غفور رحيم».

وعن البراء: وقال له رجل: «يا أبا عمارة: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ أهو الرجل يلقى العدو فيقاتل حتى يقتل؟.

قال: لا، ولكن هو الرجل يذنب الذنب فيقول: لا يغفره الله لي».

وقال سعيد بن المسيب في قوله: ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴾ [الإسراء:٢٥] قال: «هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب».

وقال عطاء بن يسار في هذه الآية: «يذنب العبد ثم يتوب فيتوب الله عليه، ثم يذنب فيتوب فيتوبُ الله عليه، ثم يذنب الثالثة فإن تاب تابَ الله عليه توبة لا تُمحى».

وعن وهب بن جرير عن أبيه قال: «كنت جالسًا عند الحسن إذ جاءه رجل فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في العبد يذنب الذنب ثم يتوب.

قال: لم يزدد بتوبته من الله إلا دنوا.

قال ثم عاد في ذنبه ثم تاب!.

قال لم يزدد بتوبته إلا شرفًا عند الله؛ ثم ذكر حديثًا عنه ﷺ، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

فبادر المعصية بالتوبة:

حين تقع في المعصية وتلم بها فبادر بالتوبة وسارع إليها، وإياك والتسويف والتأجيل.

- فالأعمار بيد الله تعالى، وما يدريك لو قد دعيت للرحيل فأجبت النداء، وودعت الدنيا وقدمت على مولاك مذنبًا عاصيًا.

- ثم إن التسويف والتأجيل قد يكون مدعاة لاستمراء

الذنب والرضا بالمعصية، لقد كان العارفون بالله تعالى يعدون تأخير التوبة ذنبًا آخر ينبغي أن يتوبوا منه.

قال العلامة ابن القيم: «منها أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرضٌ على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبةٌ أخرى وهي توبته من تأخير التوبة، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيءٌ آخر، وقد بقي عليه التوبةُ من تأخير التوبة».

فداوم على الاستغفار: والاستغفار أدب من الآداب الواقية

من جانبين:

١ - أنه يحيي في النفس توقير الله وتعظيمه.

٢ - أنه يمحو الخطايا والذنوب.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

وكان من دعاء الأنبياء والمرسلين:

دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح:٢٨].

دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٨٢].

دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ [الأعراف:١٥١].

- لئن كان ﷺ وهو الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرّة، فكيف بنا نحن معشر المذنبين المخلّطين؟!.

- ولئن كان الاستغفار يطهر النفس ويزكيها فلا يجعلها تألف اقتراف المحرمات، فكذلك هو يمحو الخطايا إن وقعت وحصلت.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صَقُلَتْ، وَإِنْ عَادَ

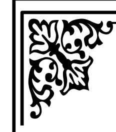
زِيدَ فِيهَا، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ الـرَّانُ الَّذِي ذَكَـرَ اللهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٤]»[١].

▪وإن الاستغفار الذي يترك أثره في النفس ويؤدي المقصود هو الذي يواطئ القلب فيه اللسان.



---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، حسنه الألباني.




الخطوة الحادية والعشرون

أكثر من الاستغفار

قد يضعف إيمان المؤمن عن التّوبة من ذنب معيّن، أو لربّما لا تساعده ظروف حياته على الإقلاع عن هذا الذّنب.

- وإذا كان الحال هكذا فلا ينبغي للمؤمن أن يعجز عن الاستغفار.
- فالاستغفار من أسباب المغفرة.
- ومن وسائل تخفيف أثر الذّنب، وهذا ليس بمستنكر.

فالاستغفار المقرون بالتّوبة له شأن آخر، لأنّ من تاب من الذّنب توبة مكتملة الشّرائط وجبت له من الله المغفرة. وأمّا الاستغفار دون إقلاع عن الذّنب فإنّه وإن كان أقلّ درجة لكن لا يُعدم العبد منه فائدة، لأنّه تعرّض بالدّعاء لنيل رحمة الله تعالى ومغفرته للذّنب.

والسّلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ قرّروا ونبّهوا أنّ مجرّد الاستغفار دون الإقلاع عن الذّنب أو العزم عليه ليس التّوبة الّتي وعد الله عليها بالمغفرة.

وبيانه أنّ الاستغفار درجات:

أولاها: الاستغفار المقرون بالتّوبة وهي أعلاها، ومذهب أهل السّنّة الجزم بترتّب المغفرة على الاستغفار المقرون بالتّوبة للنّصوص المتوافرة على ذلك، ومنها:

قوله ﷺ: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ**»[1].

قال ابن رجب: «فالاستغفار التّامّ الموجب للمغفرة هو ما قارن عدم الإصرار كما مدح الله أهله ووعدهم المغفرة؛ وهو حينئذ توبة نصوح».

وثانيها: الاستغفار بالقلب واللّسان من الذّنب لكن دون أن يقترن به توبة أو عزم على الإقلاع، وهذه أدنى من الّتي قبلها لكنّها محمودة.

---

(١) صححه الألباني.

▪وهي واقعة يقع فيها كثير من النّاس، فهو إذا واقع ذنبًا لامته نفسه فيستغفر ويدعو الله أن يغفر له لكن لا يقارن ذلك عزمه على الإقلاع لضعف إيمانه وشدّة تعلّق قلبه بالذّنب، أو لغفلته عن التّوبة،

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الاستغفار هو طلب المغفرة وهو من جنس الدّعاء والسؤال، وهو مقرون بالتوبة في الغالب ومأمور به، لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو، وقد يدعوا ولا يتوب»، وساق الحديث: «أَنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فقَالَ: أَيْ رَبِّ، أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ، فقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٦٠).

ثمّ قال: «والتّوبة تمحو جميع السّيئات،... وأمّا الاستغفار بـدون التّوبة فهذا لا يستلزم المغفـرة، ولكن هـو سبب مـن الأسباب».

وثالثها: الاستغفار العام باللّسان دون القلب، لكن بدون توبة من ذنب معيّن أو إقلاع عنه.

قال ابن رجب: وإن قال بلسانه: أستغفر الله وهو غير مقلع بقلبه فهو داعٍ لله بالمغفرة كما يقول: اللّهمّ اغفر لي، وهو حسنٌ وقد يُرجى له الإجابة، وأمّا من قال: توبة الكذّابين فمراده أنّه ليس بتوبة كما يعتقده بعض النّاس، وهذا حق، فإنّ التّوبة لا تكون مع الإصرار».

وقال: «ومجرّد قول القائل: اللّهمّ اغفر لي طلب للمغفرة ودعاء بها، فيكون حكمه حكم سائر الدّعاء إن شاء أجابه وغفر لصاحبه؛

- لا سيّما إذا خرج من قلب منكسر بالذّنب وصادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصّلوات.

ويُروى عن لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنّه قال لابنه: «يا بنيّ عوّد

لسانك: اللّهمّ اغفر لي فإنّ لله ساعات لا يردّ فيها سائلًا».

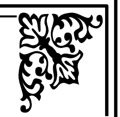
وقال الحسن: «أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم فإنّكم لا تدرون متى تنزل المغفرة».

لقد تعهّد إبليس أن يكسر نفس ابن آدم ويذلّها بالمعصية، وإذا كان كذلك فما من شيء اشدّ عليه في حال المعصية من أن يستغفر العاصي،

قال الحسن رحمه الله تعالى: بلغنا أنّ إبليس قال: سوّلت لأمّة محمّد ﷺ المعاصي، فقصموا ظهري بالاستغفار.

اللهم اغفر لنا وللمسلمين جميعًا الأحياء منهم والأموات.



الخطوة الثانية والعشرون

داوموا على الاستغفار

مما شرع الله سبحانه لعباده وحثهم عليه دوام استغفاره عَزَّوَجَلَّ. وهو هدي أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم.

قال عن نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح:٢٨].

▪وحين سأل الله أن ينجي ابنه عد هذا السؤال مما يوجب الاستغفار بل خشي من الخسران: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

[هود:٤٧].

موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص:١٦].

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ

ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٥١].

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٦].

وإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يقول راجيًّا مغفرة مولاه، معددًا أفضاله عليه: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء:٧٨-٨٢].

ويقول: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١].

ويتساءل المسلم وهو يقرأ هذه الآيات:

- وأي خطيئة ارتكبها خليل الله؟!.
- وما تلك الذنوب التي تجرأ عليها أنبياؤه صلوات الله وسلامه عليهم؟!.

أما نبينا محمد ﷺ فله شأن مع الاستغفار عظيم:

فقد قال ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[(١)].

وقال ﷺ: «وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً »[(٢)].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»[(٣)].

وفي كثير من الأدعية التي كان يدعو بها ﷺ كان يسأل الله المغفرة: فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، إلا يقول فيها: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»[(٤)].

وكان ﷺ: يدعو بهذا الدعاء: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٧).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٣٤) صححه الألباني.
(٤) أخرجه البخاري (٧٩٨)، مسلم (٤٨٦).

وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي، وَجَهْلِي، وَهَزْلِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(١).

وكان ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ»(٢).

يالله، ماذا جنت هذه النفس الطاهرة؛ وأيّ خطيئة أسرها وأعلنها، وقدمها وأخرها.

ولئن كان ﷺ وهو الذي غفر له ما تقدم وما تأخر وعلا ذكره وارتفعت درجته يستغفر الله في اليوم مائة مرة، بل في المجلس الواحد، فكيف بنا معشر المخلِّطين المذنبين المقصرين؟!.

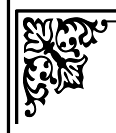
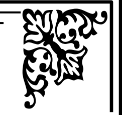
أما والاستغفار بهذه المكانة والمنزلة فجدير بنا أن لا يفارقنا

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، مسلم (٢٧١٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، مسلم (٧٩٦).

في مجلس أو مقام، وأن تلهج ألسنتنا بالاستغفار والتوبة كل وقت وكل حين، وأن نسعى للمحافظة على ما ورد من الأدعية الراتبة ونستحضر ونحن ندعو بها ذنوبنا وتقصيرنا في حق الله.

والاستغفار الذي يترك أثره في النفس، ويؤدي مقصوده، هو الذي يواطئ القلب فيه اللسان؛ إذ هو أمارة التوبة والإقلاع، وشعورٌ بالذنب والخطيئة. فحري بنا أخي الكريم أن تلهج قلوبنا قبل ألستنا بالاستغفار والندم.



الخطوة الثالثة والعشرون

أحوال الاستغفار

الاستغفار طلب للمغفرة من الله واعتراف بالذنب والتقصير وهو يشرع في أحوال ومواضع منها:

أولًا: عند الذنب:

وهو من آكد المواضع فهو هنا اعتراف بالذنب وأمارة على التوبة وسؤال لله أن يمحو أثره ويغسل درنه.

- وحين عصى أدم ربه قال وزوجه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

- وحين قتل موسى رجلًا لم يؤمر بقتله قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص:١٧].

- ويونس حين ذهب مغاضبًا وغادر قومه قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

▪وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠].

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

وقال ﷺ لعائشة: «يا عائشة، إن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله، فإن التوبة من الذنب الندمُ والاستغفارُ»(١).

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها، حتى تعلو على قلبه، وهو الرّان الذي ذكر اللهُ: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطفِّفين:١٤]».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ عَبْدًا أَصابَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ

---

(١) رواه أحمد.

لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»(١).

ثانيًا: بعد الطاعة:

وقد كان ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ»(٢).

▪ وبعد الفراغ من الحج يأمر الله عباده بالاستغفار: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٩].

▪ وبعد الفراغ من الوضوء يشرع أن يقول «سُبْحَانَكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٦٠).
(٢) أخرجه مسلم (١٤)

اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[(١)].

▪وبعد الفراغ من قيام الليل وصف الله عباده بذلك فقال: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧].

وأمر الله نبيه ﷺ في خاتمة دعوته لدين الله ومجاهدته في سبيله بالاستغفار: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ولا رضيها لسيده».

ثالثًا: في الأذكار اليومية الراتبة:

فأدعية الصلاة كثيرًا ما يرد فيها الاستغفار في دعاء

---

(١) أخرجه ومسلم (٤٨٥).

الاستفتاح وبين السجدتين، وفي الركوع، وفي السجود.

وحين سأل أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ النبي ﷺ أن يعلمه دعاءً يدعو به في الصلاة أمره أن يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»(١).

فها أنت ترى أنه ما من موضع يشرع فيه الدعاء في الصلاة إلا ويشرع فيه الاستغفار.

وفي أذكار الصباح والمساء يشرع أن يدعو بسيد الاستغفار فـ«وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(٢).

رابعًا: مداومة الاستغفار كل وقت وحين:

وهذا هدي راتب للنبي ﷺ وهو قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

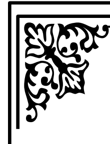
---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٣).

وقد ذكرنا هديه ﷺ في الاستغفار؛ مفصلا في الخطوة السابقة.



الخطوة الرابعة والعشرون

التوبة النصوح

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التحريم:٨].

والتوبة النصوح: المراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التوبة التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

الله سبحانه، رحيم بعباده وهو عليم بهم وبطباعهم: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [المُلك:١٤].

يعلم سبحانه أن الناس بشر مهمًا بلغوا من التقوى والصلاح والورع فلابّدُ أن يقارفوا بعض ما حرم عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا فتح الله لعباده باب التوبة ودعاهم إليها: ﴿وَتُوبُوٓاْ

إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٣١].

والحديث -أخي الكريم- عن التوبة طويل وقد أسهب فيها أهل العلم،

ويكفي التائب أن يعلم أن:

الأمر لا يقف عند حد الدعوة إلى التوبة والوعد بقبولها والحث عليها؛ وهو وحده كاف للمسلم في حثه ودفعه لها، لكن الله عَزَّوَجَلَّ يحب توبة العبد ويفرح بها.

فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ، فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ: مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(١).

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما الظن بمحبوب لك

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٥٠)، مسلم (٢٧٤٧).

تحبه حبًا شديدًا أسره عدوك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب، ويعرضه لأنواع الهلاك، وأنت أولى به منه، وهو غرسك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عدوه ووافاك على غير ميعاد، فلم يفجأك إلا وهو على بابك يتملقك، ويترضّاك، ويستعينك، ويمرغ خديه على تراب أعتابك.

فكيف يكون فرحك به وقد اختصصته لنفسك، ورضيته لقربك، وآثرته على سواه؟!.

هذا ولست الذي أوجدته وخلقته، وأسبغت عليه نعمك، والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أوجد عبده وخلقه وكونه، وأسبغ عليه نعمه؛ وهو يحب أن يتمها عليه فيصير مظهرًا لنعمه، قابلًا لها، شاكرًا لها، محبًا لوليها، مطيعًا له عابدًا له، معاديًا لعدوه، مبغضًا له، عاصيًا له.

وما أجمل تلك الحكاية التي ساقها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مدارج السالكين حيث قال: «وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين أنه حصل له شرود وإباق من سيده؛ فرأى في بعض السكك بابًا قد فتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي،

وأمه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت فذهب الصبي غير بعيد ثم وقف مفكرًا، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يؤيه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزينًا.

فوجد الباب مرتجًا فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي وتقول: يا ولدى، أين تذهب عنى؟! ومن يؤيك سواي؟! ألم أقل لك: لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟!.

ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم: لا تحملنى بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة. وتأمل قوله ﷺ: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٩٩)، مسلم (٤٠٧).

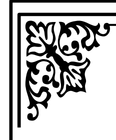
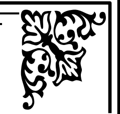
وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟!

- فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه.

- فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة بعد اليأس منها. ووراء هذا ما تجفوا عنه العبارة وتدق عن إدراكه الأذهان».



الخطوة الخامسة والعشرون

فر أيها العاصي إلى مولاك

يقول الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات:٥٠].

هذه الآية من أعظم آيات القرآن الكريم، تجمع معاني الخوف والرجاء:

الخوف من الله تعالى، واللجوء إليه سبحانه، إذ لا منجا منه إلا إليه عَزَّوَجَلَّ، أمر بالفرار منه إليه ليدل العباد على أنه أرحم بهم من كل من سواه، وأنه عَزَّوَجَلَّ يريد بالعباد الرحمة والمغفرة.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: في تفسير قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾: يقول تعالى ذكره: فاهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به، واتباع أمره، والعمل بطاعته؛ ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ يقول: إني لكم من الله نذير

أنذركم عقابه، وأخوّفكم عذابه الذي أحلَّه بهؤلاء الأمم الذين قصّ عليكم قصصهم، والذي هو مذيقهم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ يقول: يبين لكم نذارته» انتهى.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما تقدم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم لذلك، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: «قل لهم يا محمد، أي قل لقومك: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: فروا من معاصيه إلى طاعته».

وقال ابن عباس: فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم.

وعنه: فروا منه إليه واعملوا بطاعته.

وقال أبو بكر الوراق: فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن.

وقال الجنيد: الشيطان داع إلى الباطل، ففروا إلى الله يمنعكم منه.

وقال ذو النون المصري: ففروا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر.

وقال عمرو بن عثمان: فروا من أنفسكم إلى ربكم.

وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله.

﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: أنذركم عقابه على الكفر والمعصية».

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما دعا العباد للنظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، و من الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور فقد استكمل الدين كله، وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية المراد والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فرارًا: لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه، إلا الله تعالى؛ فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه،﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؛

أي: منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بَيِّنُ النذارة انتهى.

▪**فيا أخي**: أقبِل على قبلة التوجه إلى مولاك، وأعرِض عن مواصلة غيك وهواك، وواصِل بقية العمر بوظائف الطاعات، واصبر على ترك عاجل الشهوات، فالفرار أيها المكلَف كل الفرار، من مواصلة الجرائم والأوزار، فالصبر على الطاعة في الدنيا حد الصبر على النار.

▪أيها العائم في بحر الغفلة: يا نائما طول الليل. سارت الرفقة ورحل القوم.

وما انتبهت من الرقدة!!.

▪يا غافلا عن مصيره؛ يا واقفا مع تقصيره! سبقك أهل العزائم. وأنت في بحر الغفلة عائم!.

قف على الباب وقوف نادم. ونكس رأس الذل وقل: أنا ظالم. ونادِ في الأسحار: مذنب وراحم. وتشبه بالقوم وإن لم تكن منهم وزاحِم. وقم في الدجى مناديا. وقف على الباب تائبا. ودع اللهو جانبًا. وطلق الدنيا إن كنت للآخرة طالبا.

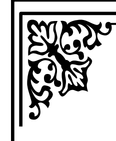
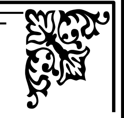
الخوف من الذنوب ولو بعد التوبة: ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وإن تاب منها وبكى عليها، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة وكأنهم قد قطعوا على ذلك. وهذا أمر غائب، ثم لو غُفِرت بقي الخجل من فعلها.

ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه في الصحاح: أن الناس يأتون إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقولون: اشفع لنا فيقول: ذنبي، وإلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول: ذنبي، وإلى إبراهيم، وإلى موسى، وإلى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم... فهؤلاء إذا اعتبرت ذنوبهم لم يكن أكثرها ذنوبا حقيقة.

- ثم إن كانت فقد تابوا منها واعتذروا وهم بعد على خوف منها.

- ثم إن الخجل بعد قبول التوبة لا يرتفع و ما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «واسوأتاه منك وإن عفوت».



الخطوة السادسة والعشرون

لذة لحظة تبقى حسرة

قد آن للنائم أن يستيقظَ من نومِه، وحان للغافل أن يتنبه من غفلته، قبل هجوم الموت بمرارة كأسه، وقبل سكون حركاته وخمود أنفاسه، ورحلته إلى قبره ومقامه بين أرماسه.

▪التوبة وظيفة العمر، وبداية العبد ونهايته، وأول منازل العبودية وأوسطها وآخرها.

فيا من يذنب ولا يتوب.

كم كُتبت عليك الذنوب.

ويحك خلِ الأمل الكذوب.

واأسفا أين أرباب القلوب.

تفرقت بالهوى في شعوب.

ندعوك إلى صلاحك ولا تؤوب.

واعجبا لك ما الناس إلا ضروب.

عندما نتأمل أحاديث التوبة نتعجب من حلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنا وحبه لنا -نحن المقصرون في جنابه-:

أيفرح ربي بتوبتي!!.

■نعم يفرح بها: «للهُ أفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وقد أضلَّهُ في أرضٍ فَلاةٍ»[(١)].

«للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يتوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بأرضٍ فَلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتى شَجَرَةً فاضطَجَعَ في ظِلِّهَا وقد أيِسَ مِنْ رَاحلَتِهِ، فَبَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِها قائِمَةً عِندَهُ، فَأَخَذَ بخطامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبدِي وأنا رَبُّكَ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ»[(٢)].

أينتظر ربي توبتي!!.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٥٠).
(٢) رواه مسلم (٢٧٤٧).

نعم ينتظرها: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بالليلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها»(١).

أيقبل ربي توبتي بعدما أسرفت على نفسي!!.

نعم يقبلها: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها تَابَ اللهُ عَلَيهِ»(٢).

«إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقْبَلُ تَوبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(٣).

وصفة المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته سبحانه عنهما.

ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للموجود.

تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار.

ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٣).
(٣) أخرجه أحمد (٦١٦٠)، صححه الألباني.

والعطاء أحب إليه من المنع.

والرحمة سبقت الغضب وغلبته.

ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره: الإنابة إلى اللهّ تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم.

فإلى متى التسويف يا من أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي؟!.

فكم من يوم قطعته بالتسويف؟

وكم من سبب أضعت فيه التكليف،

وكم أذن سمّاعة لا يزجرها التخويف؟!.

يا بطَّال إلى كم تُؤخر التوبة وما أنت في التأخير معذور؟

إلى متى يقال عنك: مفتون مغرور؟

أتُرى مواصل أنت أم مهجور؟

أتُرى تركبُ النُّجبَ غدًا أم أنت على وجهك مجرور؟

أتُرى من أهل الجحيم أنت أم من أرباب القصور؟

فأف والله لمختار الذنوب ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة لا تزول عن قلب المؤمن وإن غُفِر له.

فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلا، وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة.

وما ذكر يوجب دوام الحذر والخجل.

والآن: قد آن للنائم أن يستيقظَ من نومِه، وحان للغافل أن يتنبه من غفلته، قبل هجوم الموت بمرارة كأسه، وقبل سكون حركاته وخمود أنفاسه، ورحلته إلى قبره ومقامه بين أرماسه.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

فالموت آتٍ لا محالة، والقبر واقع لا دعابة، والمهبط إما

جنة وإما نار، فأين أنت يا قلبي المسكين؟

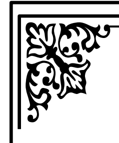
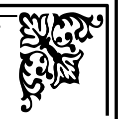
تتمرغ في ملذات الدنيا؟! قال ﷺ: «**أكثروا ذكر هادم اللذات يعني الموت**»(١). وهذا من جوامع الكلم.

قال علماؤنا: هذا كلام مختصر وجيز؛ قد جمع التذكرة وأبلغ في الموعظة؛ فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة، ومنعه من تمنيها في المستقبل، وزهده فيما كان منها يؤمل، ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الألفاظ، وإلا ففي قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أكثروا ذكر هادم اللذات**»(٢)، مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ما يكفي السامع له ويشغل الناظر فيه.



(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٧)، صححه الألباني.

(٢) أخرجه النسائي (١٨٢٤)، صححه الألباني.

الخطوة السابعة والعشرون

أما آن لك أن تتوب

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

نتوقف في خطوة هذا اليوم مع هذه الآية؛

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ إِلاَّ أَرْبَعُ سِنِينَ**»(١).

نلاحظ أسلوب هذه الآية والاستنكار: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

- ألم يحن الوقت بعد للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر

---

(١) صححه الألباني

الله وما نزل من الحق؟!

▪ثم يحذّر من أن يكون فينا صفة من صفات أهل الكتاب وهي قسوة القلوب والإعراض.

إخوتي: فلئن كان الاستمرار على الخطأ قبيحًا، ولئن كان البقاء والإصرار على الجهل والسفه والسوء قبيحًا، فإنه يتضاعف شره ويشتد إثمه ويعظم قبحه إذا صدر ممن توالت عليه النذر، أمثال نذر الشيب وطول العمر، أمثال نذر القرآن وظهور تأويله فيمن لم ينتذروا به عبر الأيام والأزمان.

▪وسبحان الله العظيم نلاحظ كيف أن القرآن الكريم من أوله لآخره تجد فيه حديثًا طويلًا جدًا يحذِّرنا من قصص بني إسرائيل وقسوتهم وقسوة قلوبهم وتكذيبهم لأنبيائهم وقتلهم لأنبيائهم وإعراضهم ويكفي في هذا قصة البقرة وتعنّتهم!.

➢ما لونها؟

➢ما هي؟

➢إن البقر تشابه علينا!

➢تصرفات إنسان لا يريد أن ينفّذ!!.

بالمقابل في آخر سورة البقرة إشارة إلى استجابة المؤمنين ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

تأمل في قوله هنا: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ [الحديد:١٦] طال عليهم الوقت والزمن

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وأصبحت أقسى من الحجارة كما قال الله سبحانه: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

▪وسبحان الله تجليات الهدى والحق في نفوس الناس لها أوقات، بعض الناس تراه موغلًا في العصيان حتى يقول الناس أنه لا يمكن أن يهتدي كما كان بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يظنون بعمر بن الخطاب في أول الإسلام فكان هناك من يقول: لعله يهتدي عمر، لعله يُسلِم، فقال أحدهم: والله لا يُسلم عمر حتى يُسلم حمار الخطاب.

▪ولكن الله يهدي من يشاء؛ فلا تيأس من هداية أحد.

ولكن السؤال هو متى يريد الله بالإنسان الهداية؟

الإنسان يدعو الله تعالى ولذلك بعض الآباء يشعر بالإحباط من هداية ابنه فيدعو عليه؛ وما ينبغي والمفترض أن يكون المربي طويل النفس يصبر على الناس فالنبي ﷺ جلس ثلاث وعشرون سنة يدعو وأعجب من النبي ﷺ، نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ألف سنة إلا خمسين عامًا!.

من يصبر هذه المدة؟!.

هم يضربون المثل بصبر أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ويذكرون في بعض الروايات أنه صبر على المرض ١٨ سنة.

▪ونوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صبر على دعوة هؤلاء المكذّبين ٩٥٠ سنة وهم يتفنّنون في السخرية منه وهو يتفنّن في دعوتهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح:٥].

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٨-٩].

أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له

وتطيعه.

قال ابن عباس: إن اللهّ استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

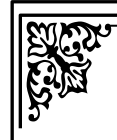
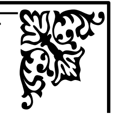
نهى اللهّ تعالى المؤمنين، أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم، من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد، بدلوا كتاب اللهّ الذي بأيديهم، واشتروا به ثمنًا قليلًا، ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد.

▪ فسدت قلوبهم فقست، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.

وقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الحديد:١٧].

فيه إشارة إلى أن اللهّ يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.



الخطوة الثامنة والعشرون

تذلل بين يدي مولاك

▪فيا من أطلق لنفسه العنان، ولم يرعَ لله تعالى حقًّا:

➢إلى متى وأنت تقتات المعصية وتألفها.

➢ألم يحن بعدُ وقت الرجوع إلى الله تعالى.

➢أما آن لك أنْ تنطرح بين يدي مولاك.

➢أما آن لك أن تفيق من سكرة الذنب.

▪أيها السائر في طريق الهوى واللذة العابرة: رويدًا رويدًا.

➢أتعرف الذي تعصيه.

➢أتعرف من تبارز بذنبك.

➢إنه الله الجبار الذي بيده ملكوت السماوات والأرض.

➢أيها المسرف على نفسه: كفاك كفاك:

▪آن لك أن تضع عصا الترحال.

▪وأن تذرف الدموع الغزار، دموع الندم على ما فات وسلف من الأزمان الماضية.

▪على ما سلف من ذنوبك وخطاياك.

نعم، آن لك أن تعترف بذنبك لربك.

ما أحلم الله علينا.

كم عصيناه ويسترنا.

كم خالفنا أمره فما عاجلنا بعذابه.

أظهر للناس الجميل، وأخفى عنهم القبيح من سرائرنا.

فاللهم رحمة من عندك تكف بها ما سلف من ذنوبنا وخطايانا.

يدرك أغلب العصاة أنه واقع في معصية الله، وأن التوبة فرض عليه؛ لكن من منهم يقدر الله حق قدره، ويخشاه، ويتذلل بين يديه.

▪وعجبًا لنا نمتع أنفسنا بلذة المعاصي وشهواتها وننغمس في أوحالها، وبعد ذلك لا تزيد توبتنا أن تكون استغفارًا باللسان، ونحن غافلون سادرون.

▪ومن ثم فالتائب ما لم يلازم محراب الإنابة، ويسلك سبيل الخاشعين، ويخبت لمولاه؛ فليعد النظر في صدق توبته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من موجبات التوبة الصحيحة: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب.

▪ولا تحصل بجوع.

▪ولا رياضة.

▪ولا حب مجرد.

إنما هي أمر وراء هذا كله تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحال عبد آبق من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًا، ولا عنه

غناءً، ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته، وسعادته، وفلاحه، ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه، وقوة سيده، وذله وعز سيده».

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة، وذل وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقربه بها من سيده.

فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع، والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له؛

فلله ما أحلى قوله في هذه الحال:

«أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني.

أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني، وفقري إليك.

هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك.

عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، ولا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك.

أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه.

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدعوى، وما عالج الصادق شيئًا أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله».اهـ.. مدارج السالكين.

إخوتي وأخواتي في الله:

إن هذه الكلمات دعوة لنا جميعًا بلا استثناء، إلى الباب المفتوح، إلى النهر العذب، إلى الروضة الغناء التي لا يذبل زهرها، ولا تذوي رياحينها وورودها، إلى التوبة النصوح، إلى التوبة من التقصير في الطاعة، ومن الوقوع في المعصية، إلى التوبة إلى الله الكريم الجواد الرؤوف الرحيم.

اللهم اغفر لنا يا غفور يا رحيم يا خير الغافرين.

ارحمنا بواسع رحمتك ولا تفضحنا بخفي ما أطلعت عليه

من أسرارنا وما تجرانا به عليك في خلواتنا.

وارزقنا حسن المنقلب إليك؛ في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة. يا ذا الجلال والإكرام.






الخطوة التاسعة والعشرون

افعل الحسنة بعد السيئة

حين تقع -أخي الكريم- في معصية فبادرها بحسنة وحسنات، علها أن تكفر عن هذه السيئة.

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِي ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود:١١٤] فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَلِي هَذَا؟ قَالَ: لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ»(١).

وفي رواية: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، فَأَنَا هَذَا فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣).

شَيْئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ فَانطَلَقَ فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا دَعَاهُ وَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ أ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟! قَالَ: بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً»[١].

وقال ﷺ: «اتَّقِ اللهَّ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[٢].

ويضرب ﷺ لذلك مثلًا فيقول: «إِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ يَعْمَلُ الْحُسنَاتِ: كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ عَلَيْهِ دِرْعٌ ضَيِّقَةٌ قَدْ خَنَقَتْهُ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً فَانفَكَّتْ حلْقَةٌ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً أُخْرَى فَانْفَكَّتْ حَلْقَةٌ أُخْرَى حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الأَرْضِ»[٣].

في الحديث الحث على المبادرة إلى التوبة إذا ارتكبت خطيئة، وعمل الصالحات بعدها لأن الحسنات يذهبن السيئات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣٠٧)، صححه الألباني.

▪فالذي عمل سيئة ثم أتبعها بحسنة كأنه خرج من ضيق شديد إلى فضاء واسع بالحسنات.

قال المناوي: يعني عمل السيئات يضيق صدر العامل ورزقه، ويحيره في أمره فلا يتيسر له في أموره، ويبغضه عند الناس، فإذا عمل الحسنات تزيل حسناته سيئاته، فإذا زالت انشرح صدره، وتوسع رزقه، وسهل أمره، وأحبه الخلق.

وحين أراد معاذ سفرًا قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: اعْبُدِ اللَّهَ لَا تشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنِي، قَالَ: إِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنِي، قَالَ: اسْتَقِمْ وَلْتُحْسِنْ خُلُقَكَ»[١].

وإن من إتباع السيئة الحسنة أن تتبع المعصية بالتوبة منها بلا تسويف أو تأجيل أو قنوط:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟

---

(١) حسنه الألباني.

عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء:٢٥].

قال ابن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

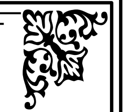
وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، قال البراء: هو الرجل يذنب الذنب فيقول: لا يغفره الله لي!.

وكل ما كانت الحسنة من جنس عمل السيئة كان ذلك أبلغ في المحو: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات فإنه أبلغ في المحو.

- فتأمل عظيم منّة الله وفضله وسعة رحمته كيف أنه جعل لك من ضيق الذنب فرجًا واسعًا.

- وهذا الأمر في الحسنات جملة فهي مكفرة للسيئات.

وقد جاءت السنة ببيان طائفة من الأعمال التي تكفر السيئات والذنوب وهى كثيرة يضيق المقام عن حصرها؛ لذا خصصنا خطوة خاصة -قادمة- نذكر فيها طائفة منها.

الخطوة الثلاثون

مكفرات الذنوب

لا يوجد شخص في هذه الحياة معصوم عن ارتكاب الخطأ؛ إلا أنّ الذنوب درجات.

▪وليس العيب في ارتكاب الذنب إنما في التمادي فيه وعدم الرجوع عنه،

▪لذا يجب التكفير عن الذنوب؛ وللوصول إلى هذه النتيجة يجب القيام بالعديد من الخطوات:

لذا سنعرفكم في هذه الخطوة على مكفرات الذنوب:

التوبة الصادقة: قال ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»[(١)].

إسباغ الوضوء: قال ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٤).

خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ»[١].

ذكر الله عقب الفرائض:

قال ﷺ: «مَنْ سَبَّحَ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[٢].

الشهادة في سبيل الله:

قال ﷺ: «يَغْفِرُ اللهُ لِلشَّهِيدِ كُلَّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ»[٣].

كثرة الخُطا إلى المساجد: قال ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَى. يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٧).
(٢) رواه مسلم (٥٩٧).
(٣) رواه مسلم (١٨٨٦).

وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ. فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ»[١].

صيام رمضان إيمانًا واحتسابًا: قال ﷺ: **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»**[٢].

قيام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا: قال ﷺ: **«مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**[٣].

قول سبحان الله وبحمده مائة مرة: قال ﷺ: **«مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»**[٤].

كفارة المجلس: قال ﷺ: **«مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ»**[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٠٢)، مسلم (٧٦١).
(٣) أخرجه البخاري (٣٧)، مسلم (٧٥٩).
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، مسلم (٢٦٩٢).
(٥) أخرجة أحمد (١٠٤١٥)صححه الألباني.

العمرة: قال ﷺ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا»[١].

الحج: قال ﷺ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[٢].

الصلاة المفروضة:

قال ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»[٣].

من قال حين يسمع المؤذن: قال ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»[٤].

الصدقة: قال ﷺ: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، مسلم (١٣٤٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٥٢١)، مسلم (١٣٥٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣).
(٤) أخرجه مسلم (٣٨٦).
(٥) صححه الألباني.

صيام يوم عرفة:

سئل رسول الله ﷺ: عن صيام يوم عرفة فقال: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ»[١].

صيام يوم عاشورا: سئل رسول الله ﷺ: عن صيام يوم عاشورا فقال: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ»[٢].

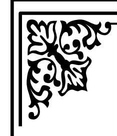
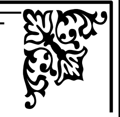
التهليل: قال ﷺ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحمْدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، في يومٍ مائةَ مرَّةٍ، كانت له عِدلُ عشرِ رِقابٍ، وكُتِبت له مائةُ حسنةٍ»[٣].

موافقة تأمين المصلي لتأمين الملائكة:

قال ﷺ: «قَالَ: إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ آمِينَ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[٤].

---

(١) رواه مسلم (١١٦٢).
(٢) رواه مسلم (١١٦٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٩٣)، مسلم (٢٦٩١).
(٤) أخرجه البخاري (٧٨١)، مسلم (٤١٠).

الخطوة الحادية والثلاثون

الاستغفار

إنّ الله تعالى قد ندب عباده إلى ملازمة الاستغفار، وأمر بالحرص عليه والإكثار منه باللّيل والنّهار؛ فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤].

▪من هذا الّذي لا يشكو كثرة الخطايا، ووقوعه في المعاصي والبلايا؟!.

▪فحريّ بنا أن نغسل أنفسنا، وأرواحنا وقلوبنا بالإكثار من الاستغفار، والتّوبة والرّجوع إلى العليّ الغفّار.

فضل الإكثار من الاستغفار: ويظهر لك فضله، ويتجلّى لك أجره من وجوه ثمانية:

أنّه من أوسع أبواب الرّزق والفضل: قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ

﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣].

أنّه أمان من عذاب الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣].

قال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ثنتان يؤمّنان من العذاب، قد رفعت إحداهما وبقيت الثّانية**» وتلا عليهم الآية، ثمّ قال: العجب ممّن يهلك ومعه النّجاة !؟ وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «**ما ألهمَ الله عبْدا الاستغفار وهو يريد أن يُعذّبه**».

أنّه من أحبّ أعمال العباد إلى الله تعالى: قال ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ**

بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[١].

أنّه هادم لإغواء إبليس:

قال ﷺ: «قَالَ إِبْلِيسُ: وَعِزَّتِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ اللهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»[٢].

أنّه من أسباب السّعادة والرّزق في الآخرة: قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ»[٣].

أنّه مطهرة من الذّنوب:

قال ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]»[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، صححه الألباني.

(٢) صححه الألباني.

(٣) صححه الألباني.

(٤) أخرجه الترمذي (٤٠٦)، صححه الألباني.

أنّه جلاء القلوب وطهورها: قال رَسُولِ الله ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطفّفين:١٤]»[(١)].

الاستغفار يصل إلى تكفير الكبائر: وذلك إذا اقترن بصدق التّوبة والإخلاص فيها: قال ﷺ: «**مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنْ الزَّحْفِ**»[(٢)].

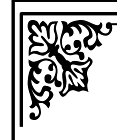
ومعلوم أنّ الفرار من الزّحف من الكبائر، بل من السّبع الموبقات.

والله الموفّق ولا ربّ سواه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٤)، صحّحه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٢٩)، صحّحه الألباني.




الخطوة الثانية والثلاثون

الصبر على الابتلاء

أن يبتلي الله تعالى، العبد بمصائب تكفّر عنه تلك الذنوب والمعاصي؛ إذا صبر واحتسب؛ فقد قال ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»(٢).

فالخير للمسلم العاصي أن تعجَّل له عقوبته في الدنيا بما يصيبه به ربه تعالى من أمراض ومصائب في ماله أو بدنه، وهذا خير له من تأخير ذلك لعقوبته بها في الآخرة.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ

(١) رواه البخاري (٥٦٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩) وحسنه الألباني.

الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].

قال الإمام ابن العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده الخير: عجَّل له العقوبة في الدنيا، إما بماله أو بأهله أو بنفسه أو بأحد ممن يتصل به».

▪ **المهم**: أن تعجل له العقوبة؛ لأن العقوبات تكفِّر السيئات، فإذا تعجلت العقوبة وكفَّر الله بها عن العبد: فإنه يوافي الله وليس عليه ذنب قد طهرته المصائب والبلايا حتى إنه ليشدد على الإنسان موته لبقاء سيئة أو سيئتين عليه حتى يخرج من الدنيا نقيًّا من الذنوب، وهذه نعمة؛ لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

▪ لكن إذا أراد الله بعبده الشر: أمهل له واستدرجه وأدرَّ عليه النِّعَم ودفع عنه النقَم حتى يبطر ويفرح فرحًا مذموما بما أنعم الله به عليه، وحينئذ يلاقي ربه وهو مغمور بسيئاته، فيعاقَب

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه الألباني.

بها في الآخرة، نسأل الله العافية.

فإذا رأيت شخصًا يبارز الله بالعصيان وقد وقاه الله البلاء وأدرَّ عليه النعَم: فاعلم أن الله إنما أراد به شرًّا؛ لأن الله أخَّر عنه العقوبة حتى يوافي بها يوم القيامة.

▪ومن هنا قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكرهوا البلايا الواقعة، والنقمات الحادثة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تؤثره فيه عطبك -أي: هلاكك».

ومن فوائد إصابة المذنب بالمصائب أنها تذكره بربه تعالى، فربما تُحدث له توبة ورجوعا إلى ربه تعالى، وربَّما تجعل منه عبدًا صالحًا طائعًا يعوِّض ما فاته من حياته بالأعمال الصالحة.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤٢].

أي: استعلن الفساد في البر والبحر أي: فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال

الفاسدة المفسدة بطبعها[١].

هذه المذكورة ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجَّل لهم نموذجًا من جزاء أعمالهم في الدنيا.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن أعمالهم التي أثَّرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم، فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته؛ وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة.

وقال ﷺ: **«فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»**[٢].

▪ فالصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة، فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد، وهي جزاء من الله للعبد على ذنبه، ويكفر ذنبه بها.

---

(١) تفسير السعدي

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه الألباني.

وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله، والصبر والسخط من فعله، وإن كان الأجر قد يحصل بغير عمل من العبد، بل هدية من الغير، أو فضلًا من الله من غير سبب، قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].






الخطوة الثالثة والثلاثون

تحقيق التوحيد

«لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ»(١).

قال رسول الله ﷺ: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»(٢).

وتنفع كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) في يوم يبحث فيه عما يخلصه كما قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلَ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟

---

(١) رواه مسلم (٢٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٧)، وأحمد (٥/ ١٧٢).

أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟!»[1].

➢فيقول: لا يا رب.

➢فيقول أفلك عذر؟!.

➢فيقول: لا يا رب.

فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم. فتُخرج بطاقة فيها: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**». فيقول: أحضر وزنك. فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟!.

فقال: «**إنك لا تظلم؛ قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقُلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله تعالى شيء**»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك مالا يعفى لمن ليس كذلك.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٧) وأحمد (٥/ ١٧٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، صححه الألباني.

▪فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئًا البتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده.

▪فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب؛ لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي».

➢وقد يتساءل بعضنا:

➢وما شأن التوحيد؟!.

➢ولم يكون البعد عن الشرك بهذه المنزلة؟!.

فيجيب على ذلك التساؤل العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: «فاعلم أن هذا النفي العام للشرك -أن لا يشرك بالله شيئًا البتة- لا يصدر من مُصر على معصية أبدًا، ولا يمكن مدمن الكبيرة والمُصر على الصغيرة أن يصفو له التوحيد، حتى لا يشرك بالله شيئًا، هذا من أعظم المحال.

▪واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله، ورجائه لغير الله، وحبه لغير الله، وذله لغير الله وتوكله على غير الله.

▪ما يصير به منغمسًا في بحار الشرك، والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه إن كان له عقل.

فإن ذُلَّ المعصية لابّدُ أن يقوم بالقلب فيورثه خوفًا من غير الله وذلك شرك، ويورثه محبة لغير الله، واستعانة بغيره من الأسباب التي توصله إلى غرضه.

▪فيكون عمله لا بالله ولا لله، وهذا حقيقة الشرك.

والمقصود أن من لم يشرك بالله شيئًا يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا مصرًا عليها، غير تائب منها، مع كمال توحيده، الذي هو غاية الحب والخضوع والذل والخوف والرجاء للرب تعالى».

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع

وضعفه فلها نور؛ وتفاوت أهلها في ذلك النور قوة وضعفًا لا يحصيه إلا الله تعالى».

- **فمن الناس**: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.
- **ومنهم**: من نورها في قلبه كالكوكب الدري.
- ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم.
- **وآخر**: كالسراج المضيء.
- وآخر كالسراج الضعيف ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علمًا وعملًا ومعرفة وحالًا».

وحيث كان أهل التوحيد يتفاوتون هذا التفاوت، ويختلفون هذا الاختلاف، فنتاج هذا التوحيد وثمرته في الدنيا والآخرة تتفاوت كذلك.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضحًا أثر ذلك: «وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد: أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته.

حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنبًا إلا أحرقه.

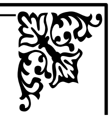
وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئًا.

فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غِرَّة وغفلة لابّدُ منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه، أو حصل أضعافه بكسبه.

فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجن والإنس ليس كمن فتح لهم خزانته وولى الباب ظهره».

إذًا فلنعن أخي الكريم بتحقيق التوحيد في قلوبنا، وملئها بمحبة الله وإجلاله وتعظيمه، والتخلي عن التعلق بما سواه، والتوجه إلى غيره عَزَّوَجَلَّ.



الخطوة الرابعة والثلاثون

ذنوب الخلوات

ذنـوب الخلوات تعني اقـتراف العبد للذنب في سرّه أو خلوته، ومعنى الخلوة في هذا الجانب لا يقتصر على وجود الإنسان في مكانٍ خالٍ من النّاس دونه، وإنّما تعني أيضًا وجود الإنسان في مكان لا يعرفه فيه أحد.

وتعد ذنوب الخلوات شكلًا من أشكال النفاق والرياء والخبث؛ حيث يستخفي الإنسان ويستحي بذنبه من الناس، ولا يستخفي ويستحي به من الله تعالى.

الواجب على المسلم أن يحذر من ذنوب الخلوات، فالله تعالى قد ذم من يستخفي بذنبه من الناس، ولا يستخفي من الله، قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء:١٠٨].

قال الشاعر:

إذا مـا خلـوت بريبـة في ظلمـة

والـنفس داعيـة إلى العصـيان

فاستح من نظـر الإلـه وقـل لهـا

إن الـذي خلـق الظـلام يـراني

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذنوب الخلوات سبب للانتكاسة وعبادة الخلوات سبب للثبات».

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خاتمة السوء تكون بسبب دسيسةٍ باطنة بين العبد وربه».

وقال بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكن لله وليًا في العلانية، وعدوه في السر».

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إذا صليت أمام الناس وأحسنت، فصلّ بمثلها حيث لا يراك أحد، وإلا فقد جعلت الله أهون الناظرين إليك».

أما كيف يتخلص الإنسان من ذنوب الخلوات، فيكون ذلك بـ:

١- **الالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء**، والتضرع إليه، أن يصرف عنه الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

٢- **مجاهدة النفس**، ودفع وسوستها، ومحاولة تزكيتها بطاعة الله، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

تأمل الوعيد الشديد الوارد في الحديث الذي حذر النبي ﷺ من ذنوب الخلوة والسر، كما جاء عن ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا**» قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا**

خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»[١].

وخشية انطباقه هذا الحديث على فاعل تلك الذنوب في خلواته، استشعار مراقبة الله تعالى، وأنه رقيب، ومطلع على المسلم في كل حال: وقد ذُكر عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان ينشد هذين البيتين، إما له، أو لغيره:

إذَا مَا خَلَوتَ الدهْرَ يَومًا فَلا تَقُل خَلَوتُ وَلكن قُل عَليّ رَقيب

وَلا تَحْسَبَن الله يَغْفُل ساعةً وَلا أن مَا يَخْفَى عَلَيْه يَغيب

أن يتخيل المسلم من يجلهم، ويحترمهم، ينظرون إليه وهو يفعل ذلك الذنب!.

ويستشعر استحياءه من الله أكثر من استحيائه من الخلق، قال ﷺ: «**واستحي من الله استحياءك رجلًا مِنْ أهلكَ**»[٢].

تذكر الموت لو أنه جاءه وهو في حال فعل المعصية،

---

(١) صححه الألباني.

(٢) صححه الألباني.

وارتكاب الذنب، فكيف يقابل ربه وهو في تلك الحال؟!.

تذكر ما أعده الله لعباده الصالحين من جنة عرضها السموات والأرض، والتفكر في عذاب الله تعالى، قال تعالى: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.

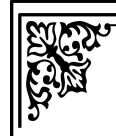
نصيحة لك أيها السالك طريق الله: أوصيك بما أوصى به رسول الله ﷺ أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «**أوصيك بتقوى الله تعالى في سِرِّ أمرِك وعلانيته**»[1].

فإذا أردت الثبات حتى الممات:

- فعليك بالمراقبة فى الخلوات.
- وعليكم بعبادة السر فإنك تقى بها النفس من نوازع الشهوات.



(١) صححه الألباني.




الخطوة الخامسة والثلاثون

فانصب

الوقت هو حياة الإنسان ولابّدُ من استغلاله فيما يعود على الإنسان بالنفع. وفيما يدفع عنه الضر.

▪ولعمري! كم من أناس يقضون أوقاتهم في غير فائدة تذكر، أو منفعة تسطر!!.

▪ولما كان الفراغ قاتلًا للأوقات، خاصة وقت الشباب الذي هو أغلى من كل شيء؛ كان الاهتمام به أبلغ وأشد.

➢إن الشباب والفراغ والجدة

➢مفسدة للمرء أي مفسدة

والنفس: إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية.

▪وذلك سرّ من أسرار التوجيه الرباني: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشَّرح:٧-٨].

إن إشغال النفس بعمل الصالحات: [صلاة، صيام، بر وإحسان، صدقات... زيارة مريض، إجابة دعوة، تحضير كلمة، سماع شريط... مباسطة الأهل والإخوان] من أهم الوقايات للعبد في هذا الباب.

فهذه قاعدة من قواعد تربية النفس، وتوجيه علاقتها مع الله عَزَّوَجَلَّ، تلكم القاعدة القرآنية التي دل عليها قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾: يأمر الله فيها نبيه ﷺ إذا انتهى من طاعة أو عملٍ ما أن ينصب ويبدأ في عمل أو طاعة أخرى، وأن يرغب إلى ربه في الدعاء والعبادة، والتضرع والتبتل، لأن حياة المسلم الحق كلها لله، فليس فيها مجال لسفاسف الأمور.

▪ وأن يعيش العبودية لله في جميع أحواله، فهو يعيشها في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، وفي الحضر والسفر، وفي الضحك والبكاء، ليتمثل حقًا قول الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢]، متأسيًا -قدر الطاقة بالثلة المباركة من أنبياء الله ورسله- الذين أثنى الله عليهم بقوله:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

والمعنى الذي دلت عليه هذه الآية: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ معنى عظيم، وهو أصل من الأصول التي تدل على أن الإسلام يكره من أبنائه أن يكونوا فارغين من أي عمل ديني أو دنيوي! وبهذا نطقت الآثار عن السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

يقول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إني لأمقت أن أرى الرجل فارغًا لا في عمل دنيا ولا آخرة.

وسبب مقت ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لهذا النوع من الناس؛ لأن «قعود الرجل فارغًا من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعينه في دينه أو دنياه من سفه الرأي، وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة».

قال بعض الصالحين: «كان الصديقون يستحيون من الله أن يكونوا اليوم على مثل حالهم بالأمس» علق ابن رجب: على هذا فقال: «يشير إلى أنهم كانوا لا يرضون كل يوم إلا بالزيادة من عمل الخير، ويستحيون من فقد ذلك ويعدونه خسرانًا».

▪**ومن الحكم السائرة: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد!**

وهي حكمة صحيحة يشهد القرآن بصحتها، وقد روي عن الإمام أحمد: أنه قال: إن التأخير له آفات.

وصدق: والشواهد على هذا كثيرة.

ومن آثار مخالفة هذه الآية: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾: أن بعض الناس لا يستغل الفرص التي تسنح فيفرط كثير من الناس -وخصوصًا الشباب والفتيات- في التوبة، والإنابة، والرغبة إلى الله، بحجة أنهم إذا كبروا تابوا، وهذا لعمر الله من تلبيس إبليس!.

➢إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى.

➢ولاقيت بعد الموت من قد تزودا.

➢ندمت على أن لا تكون كمثله.

➢وأنك لم ترصد بما كان أرصدا.

وقال الإمام ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي إذا فرغت من أعمالك فانصب لعمل آخر، يعني

اتعب لعمل آخر، لا تجعل الدنيا تضيع عليك، ولهذا كانت حياة الإنسان العاقل حياة جد، كلما فرغ من عمل شرع في عمل آخر، وهكذا؛ لأن الزمن يفوت على الإنسان في حال يقظته ومنامه، وشغله وفراغه، يسير ولا يمكن لأحد أن يمسك الزمن، لو اجتمع الخلق كلهم ليوقفوا الشمس حتى يطول النهار ما تمكنوا، فالزمن لا يمكن لأحد أن يمسكه،

إذًا اجعل حياتك حياة جد، إذا فرغت من عمل فانصب في عمل آخر، إذا فرغت من عمل الدنيا عليك بعمل الآخرة، فرغت من عمل الآخرة اشتغلت بأمر الدنيا.

فإذا فرغنا من شغل اشتغلنا في آخر، وإذا فرغنا منه اشتغلنا في آخر وهكذا ينبغي أن يكون الإنسان دائمًا في جد.






الخطوة السادسة والثلاثون

معرفة عقوبات الذنوب

فتعرف أن كل بلية وكل همٍّ وكل ضيق وكل عسر، إنما هو بسبب المعاصي والذنوب.

وإليك العقوبات لبعض الذنوب التي يتهاون الكثير من الناس في الوقوع بها:

التهاون في الصلاة: وليس المقصود تارك الصلاة بالكلية، إنما من يتهاون في صلاة الفجر أو شهود صلاة الجماعة؛ أما تاركها فمصيبته أعظم والعياذ بالله.

ومن عقوبات من ينام عن صلاة الفريضة: قال ﷺ: «**إنه أتاني الليلة آتيان وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر، فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه**

فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى»[١]؛ وَقَالَ ﷺ: «**أَمَّا الَّذِي يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفِضُهُ وَيَنَامُ عَنْ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ**»[٢].

الكذب: وفي نفس الحديث السابق قال: «فأتينا على رجل مستلق على قفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه، قال: ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، قال: فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى» فلما سأل النبي عن حال هذا الرجل، قالوا: «**فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق**»[٣].

- كالذي يُكثِر من المزاح، فيكذب ويخوض في أعراض

---

(١) رواه البخاري.

(٢) صحيح الترغيب والترهيب.

(٣) صحيح الترغيب والترهيب.

الناس وتنتشر هذه الأكاذيب؛ فيكون هذا عذابه في القبر والعياذ بالله.

الزنا: قال -في نفس الحديث السابق: «فانطلقنا فأتينا على مثل التنور (أي: الموقد الكبير) قال: فأحسب أنه كان يقول فإذا فيه لغط وأصوات. قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا -أي: صرخوا-» فقالوا للنبي ﷺ: «إنهم الزناة والزواني»(١).

وفي هذا العصر انتشر الزنا الذي هو من أكبر الكبائر، وأعظم الموبقات التي تمحق الإيمان وتستوجب غضب الرحمن؛ ومن يقع فيه تُعجَّل عقوبته في الدنيا، ويُعاقب من جنس عمله.

مقدمات الزنا: فلا يتورع الناس عن النظر الحرام، فيتساهلون في الدخول إلى المواقع الإباحية، ومشاهدة الأفلام والمسلسلات.

▪ ولا يعلمون أن العين تزني وزناها النظر قال ﷺ: «إِنَّ

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب

اللهَّ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ»[1].

السماع المحرَّم للأغاني: وقد توعَّد النبي من يستمع الغناء بالمسخ والقذف، فقال ﷺ: «**ليكونن في هذه الأمة خسف وقذف ومسخ؛ وذلك إذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف**»[2].

قال ﷺ: «**صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: مزمار عند نعمة، ورنة عند مصيبة**»[3].

فمن يستمع للغناء يُعَرِض نفسه للمسخ والطرد من رحمة الله.

ويكفي المسخ الذي يحدث للقلوب من جراء الاستماع لهذه الملوثات.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) صححه الألباني.

(٣) صححه الألباني.

الاختلاط: قال ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا**»(١).

وهذا من أعظم الأدلة على منع الشريعة للاختلاط، وأنه كلّما كان الرجل أبعد عن صفوف النساء كان أفضل وكلما كانت المرأة أبعد عن صفوف الرّجال كان أفضل لها.

▪ وإذا كانت هذه الضوابط قد اتخذت في المسجد وهو مكان العبادة الطاهر الذي يكون فيه النساء والرجال أبعد ما يكون عن ثوران الشهوات، فاتخاذها في غيره ولا شك من باب أولى.

التبرج: قال ﷺ: «**شر نسائكم المتبرجات المتخيلات وهن المنافقات، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم**»(٢).

▪ فوصف النبي النساء اللاتي لا يلتزمن بالحجاب الشرعي بأنهن شر نساء المسلمين، ووصفهن بالنفاق الذي عقوبته الدرك

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صححه الألباني.

الأسفل من النار، ويندر أن يدخل منهن الجنة بدون عذاب كندرة الغراب الأعصم وهو من أندر الكائنات.

فهل يوجد مجال للمكابرة والمجادلة بعد معرفة تلك العقوبات؟!

الربا: قال ﷺ: «**إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل**»[١].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥].

الحقد والحسد: فبعض الناس ذنوبهم داخل قلوبهم، مما يُضيِّع عليهم دينهم: قال ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم الحسد والبغضاء هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا**»[٢].

الغيبة والنميمة: وقد قال رسول الله ﷺ: «**من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال «أي: عصارة أهل**

(١) صححه الألباني.

(٢) صححه الألباني.

النار» حتى يخرج مما قال وليس بخارج»[١].

فما من أحدٍ إلا وله نصيب من قائمة الذنوب السالفة.

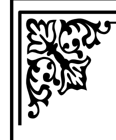
واحذر من الاستهانة بالذنب؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٨].

فينبغي أن تستحي من الله قبل أن يَحِلَّ العذاب بالعصاة.



---

(١) صححه الألباني.

الخطوة السابعة والثلاثون

لا تدع الدعوة

يشعر الشاب الذي يقارف المعصية -وكلنا كذلك- بتعارض وتصارع بين أمرين:

١- فهو يسمع الحديث عن الدعوة، وإنكار المنكرات، وتطرق أذنه النصوص الآمرة بذلك، والحاثة عليه، ويرى النماذج من العاملين الداعين أمام ناظريه.

فيدعوه هذا إلى المشاركة، ودخول الميدان، والسير مع القافلة، فالوقت والعمر لا يحتمل الانتظار.

وما أن تتوقد الحماسة في نفسه، وتتهيأ لتترجم إلى جهود وأعمال ومواقف حتى يبدو صوت آخر يهزه من داخله قائلًا له:

٢- ما هذا؟! أتدعو إلى الله وأنت ملوث؟! وأنت خطاء؟! إن الدعوة ونصرة الدين منزلة شريفة، ودرجة سامية لا تليق

بأمثالك من المخلطين. فأولى بك أن تدعو نفسك، وتأمرها بالمعروف، وتنهاها عن المنكر!.

وقد ينتصر هذا الصوت فيقرر التخلي، والتأجيل لمرحلة لاحقة، وقد يرى أن هذا السلوك يفرضه الانضباط الشرعي وأن التورع يقتضي منه عدم الدخول في هذا الميدان الدعوي.

والوصول إلى نتيجة مباشرة بخطأ قول أو صوابه منطق مرفوض شرعًا وعقلًا، فلابّدُ من عرض القول على النصوص الشرعية وعلى المنطق العقلي المنضبط بميزان الشرع، ولعل ذهنك يتسع أخي الكريم للإفاضة في نقاش المسألة.

فنقول وبالله التوفيق ومنه نستمد العون:

أولًا: لاشك أن القول الذي لا يصدقه عمل مذموم في الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة.

ففي التنزيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف:٢-٣].

وفيه أيضًا: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

وفي السنة النبوية في حديث أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون أي فلان؟! ما شأنك؟! أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(١).

ووردت آثار عن السلف في ذلك منها:

مقالة أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ «**لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا**»(٢). تفسير ابن جرير.

ثانيًا: هل هذا الذم الذي ورد في هذه النصوص هو ذم للرجل على دعوته وإنكاره للمنكر؟! أم أنه ذم له على فعل

---

(١) صححه الألباني.

(٢) تفسير ابن جرير.

المنكر مع أنه أولى الناس باجتنابه؟!

▪ولعل الثاني أليق بالنصوص الشرعية؛ إذ لا يعقل أن يذم الرجل ويعاب على عمل الخير، وأن يصبح عمله للخير سيئة يعاقب عليها.

▪واختار الحافظ ابن كثير هذا المعنى فقال: «**وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له**»(١).

ثالثًا: هل يوجد حين نعمم هذه النتيجة من لا يقع في المعصية، ولا يقارف الخطيئة؟! والبشر كلهم خطاؤون وعصاة، ولا يمكن أن يصل المرء إلى حال لا يواقع فيها معصية. فهل يسوغ أن نقول بعد ذلك: لا يحق لأحد أن يأمر الناس بالخوف من الله لأنه لابّدُ أن يقع في المعصية، وذلك ناشئ من قلة خوفه له سبحانه.

أو لا يحق لأحد أن يأمرهم بتقواه وهو يقع في المعصية؛ لأنه لم يتق الله؟!.

---

(١) تفسير ابن كثير.

وهذا يعني باختصار أن لا يدعو أحد، ولا يأمر أحد بالمعروف؛ إذ لا يمكن أن يصل أحد إلى حال لا يواقع فيها المعصية.

قال سعيد بن جبير: «لو كان لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر. قال مالك: وصدق، من ذا الذي ليس فيه شيء»[(١)].

- ويشير الشاعر إلى هذا المعنى قائلًا:

ولو لم يعظ في الناس من هو مذنب

فمن يعظ العاصين بعد محمد

رابعًا:

- إن الواجب على المرء تجاه المنكر أمران أولهما تركه، والثاني النهي عنه.

- والواجب عليه تجاه المعروف أمران أيضًا أولهما فعله، والثاني الأمر به.

---

(١) تفسير ابن كثير

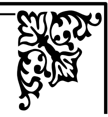
فحين يترك الواجب الأول فهل يسقط عنه الواجب الثاني؟!.

قال ابن كثير: «فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف»[١].

إن تركك للنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل فعلك للمنكر نفسه، أو تركك للمعروف: إن هذا بحد ذاته منكر آخر.



(١) تفسير ابن كثير



الخطوة الثامنة والثلاثون



الصدقة

أنا وأنت نقصر في طاعة الله، أنا وأنت من البشر ومن بني آدم، وفي الحديث الصحيح: «**كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**».

- من الذي ما ساء قط.
- ومن له الحسنى فقط.

فاذا كان الأمر كذلك فاعلم أنه لا حرج أن يتصدق المسلم عقب كل معصية بشيء من ماله؛ لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٥].

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٧١]؛ قال ابن جرير: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ بمعنى: ويكفر الله عنكم بصدقاتكم.

وعن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»(١).

وثبت في قصة كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وتوبته عن التخلف عن غزوة تبوك أنه قال: قلت: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ؛ قَالَ له الرسول ﷺ أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»(٢).

وجاء في (مغني المحتاج): «ويسن التصدق عقب كل معصية قاله الجرجاني» انتهى.

فالصدقة تطفئ غضب الله تعالى: فعن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه، ونحن نسير، قال يا معاذ: «ألا أدُلُّكَ على أبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تطفئ الخَطِيئَةَ كما يطفئ المَاءُ النارَ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ -شعار الصالحين- ثم تلا قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا

---

(١) حسنه الألباني

(٢) متفق

رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦]»[١].

وقال ﷺ: «صَنائِعُ المَعروفِ تَقِي مَصارعَ السُّوءِ، وصَدَقةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غضَبَ الرَّبِّ، وصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ في العُمُرِ»[٢].

وقال شراح الحديث: أي إنها تطفئ الذنوب والخطايا كما تطفئ الماء النار، صار معنا وسيلة فعالة، كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

- زلت قدم.
- حجبت عن الله.
- شعرت بجفوة فيما بينك وبين الله.
- رأيت الطريق إلى الله ليس سالكًا.

بادر إلى عمل طيب، لعل الله عَزَّوَجَلَّ يقبل هذا العمل، ويصرف عنك السوء.

فالله يغضب، ما الذي يطفئ غضبه، أن تندم، وأن تبادر

---

(١) صححه الألباني.
(٢) حسنه الألباني.

إلى عمل تنقذ نفسك من غضبه، كلام طيب، كلام مريح، كلام مسعد، إنسان زلت قدمه، إنسان لاح له شبح مصيبة، ما الذي بيده أن يفعله؟ بيده أن يسترضي الله بالصدقة، لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

الصدقة وقاية من النار كما في قوله ﷺ: «**فاتقوا النار، ولو بشق تمرة**»(١).

وقال ﷺ: «**يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار**»(٢).

وقال ﷺ: «**من استطاع منكم أن يتقي النار فليتصدق ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**»(٣).

أن المتصدق في ظل صدقته يوم القيامة كما قال ﷺ: «**كل امرىء في ظل صدقته، حتى يُقضى بين الناس**».

قال يزيد: «فكان أبو مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه

---

(١) صححه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

بشيء ولو كعكة أو بصلة»[١].

▪وذكر النبي ﷺ: أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**رجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[٢].

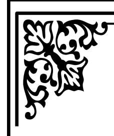
الصدقة؛ ترقق القلب كما في قوله ﷺ لمن شكى إليه قسوة قلبه: «**إذا أردت تليين قلبك فأطعم المسكين، وامسح على رأس اليتيم**»[٣].



(١) صححه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) حسنه الألباني.



الخطوة التاسعة والثلاثون



هل تعاهد الله على ترك المعصية

حين يواقع بعضٌ من الشباب المعصية، وتكويه نارها، يتحرك وازع الإيمان في قلبه، ويحترق ندمًا وتألمًا، ويشعر أن نفسه الضعيفة أوقعته في المعصية، حينها يعاهد الله تعالى:

- أن لا يقارف المعصية.
- أو ينذر لله أن يصوم كذا وكذا أو يصلي كذا وكذا.

هذا المسلك لاشك أن الباعث عليه هو:

- التألم من مواقعة المعصية.
- والرغبة في كبح جماح النفس.
- ووضع حد لتجاوزاتها.

ولكن: هل سلامة النية وحدها كافية في الحكم على عمل أنه صائب وموافق للشرع؟!.

وحين نضع الموضوع على محك النقاش نستطيع أن نسجل الملحوظات الآتية:

الغالب أن الدافع لهذا الشاب لمثل هذا المسلك هو شعوره بالفشل في مقاومة نفسه، ومن ثم يرى أنها بحاجة للّجوء لهذه الأساليب للضغط عليها.

▪ والنفس لاشك قد تضعف، ويشعر صاحبها أنها قد تخونه، لكن مثل هذا المسلك هروب عن الأسلوب الأنجح في كبح جماحها.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا المعنى، موجهًا إلى الالتفات للسبب الحقيقي، والأسلوب الأولى، ألا وهو الحزم مع النفس، وقوة العزيمة: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور:٥٣].

فالقضية ليست بحاجة للقسم، إنما طاعة وعزيمة، حين يعاهد الله على عدم مواقعة المعصية فقد تضعف نفسه ويواقعها.

وهنا قد يخشى أن ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ

عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَـئِنْ ءَاتَـىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَـىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

لقد نهى ﷺ عن النذر وأخبر أنه: «**لا يردّ شيئًا، إنما يستخرج به من البخيل**»[(١)].

فحين ينذر ثم يفشل ويقع في المعصية يكون قد ألزم نفسه ما لم يلزمه الشرع به.

وكثيرًا ما نجد المرء يسأل وقد نذر أو عاهد الله أن يفعل فعلًا فلم يفعله، ويبحث عن المخرج.

وكان الأولى به اختصار الطريق من البداية.

لو فكر هذا الشاب في نفسه مليًا لرأى أنه لا فرق بين الذي عاهد الله أو الذي لم يفعل.

▪ فالذي أوقعه في المعصية إنما هو استيلاء الشهوة وغلبة

---

(١) متفق عليه.

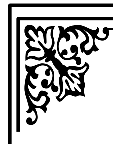
داعيها على داعي الإيمان.

▪ فهذه المعاهدة لن تصنع شيئًا ولن تجدي.

ويقول شيخنا الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا ينبغي للإنسان أن يحلف على ترك معصية مِن المعاصي، أو على فعل واجب من الواجبات، فإن هذا مما نهى الله عنه.

فقال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فالذي ينبغي للإنسان أن يستعين بالله تعالى على فعل الطاعات وترك المحرمات بدون أن يَحْلِف، بل يُمَرِّن نفسه على قبول أمْر الله ورسوله، فِعْلًا للمأمور، وتَرْكًا للمحظور، بدون إلْزَام بالقَسَم». اهـ.






الخطوة الأربعون والأخيرة

خطوات عملية للتخلُّص من الذنوب

على المرء أن يُقلِع عن ذنوبه قبل التفكير في الارتقاء بمنزلته عند الله جَلَّ وَعَلَا.

لأنك لن تستطيع أن تتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وتزداد محبتك له سبحانه، وأنت مازلت مصرًا على الوقوع في بعض الذنوب.

▪كان الحسن البصري يقول «ما عُبِّدَ العابدون بشيءٍ أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه».

وإن قلت: أنك ترغب في الإقلاع عن المعاصي، لكن كلما حاولت فشلت.

عليك أن تسأل نفسك: هل تكره الذنب بالفعل وتكره أن تقع فيما يُغضِب الله عَزَّوَجَلَّ عليك.

أم أنك تخشى أعين الناس ولا تخشى عينه الناظرة إليك؛

وهو الرقيب الشهيد البصير، يسمع كلامك ويرى مكانك ويعلم سرك وعلانيتك،

▪وصدق من قال:

يَـــا كَـــاتِمَ السِّــــرِّ وَمُخْفِيـــهِ
أَيْـــنَ مِـــنَ اللهِ تُوَارِيـــهِ
بَـــارَزْتَ بِالْعِصْـــيَانِ رَبَّ الْعُـــلَى
وَأَنْـــتَ مِـــنْ جَـــارِكَ تُخْفِيـــه

أوقف نزيف الحسنات؛ واترك المعاصي والذنوب، حتى تخرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

كان داود الطائي يقول: «ما أخرج الله عبدًا من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس».

وحينها فقط تتذوق طعم الحياة الطيبة:

الخطوات العملية للتخلُّص من الذنوب:

الخطوة الأولى: كراهية الذنب: عظِّم ربَّك في قلبك؛

استشعر عظمة ربَّك في قلبك قبل أن تنطق على لسانك: الله أكبر... وإذا عظمت ربَّك بحق، ستحتقر الذنـوب التي تبعدك عنه.

فتُكثِر من الدعاء؛ حتى يُكَرِه الله تعالى إليك الذنوب ويحفظك منها ويُطَهِّر قلبك من آثارها.

اللهمَّ كَرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وباعد بيننا وبين الخطايا كما باعدت بين المشرق والمغرب.

الخطوة الثانية: مشاهدة صور من انتقام الله تعالى من العصاة.

- فحين ترى أقوامًا قد ابتلوا بعقوبات على معاصيهم، ستَحمَد ربَّك وتعترف بنعمته وحِلمه عليك؛ وتعلم أن ربَّك قد يُمْهِل لكنه لا يُهْمِل.

الخطوة الثالثة: ترك كل ما تكره أن تموت عليه:

قال سلمة بن دينار: «انْظُرْ كُلَّ عَملٍ كَرهتَ المَوْتَ مِنْ أَجْلِهِ، فَاترُكْهُ، ثُمَّ لاَ يَضرُّكَ مَتَى مِتَّ».

فهل تتمنى أن تموت على ذنبٍ أم على طاعة؟!

الخطوة الرابعة: قل لنفسك: حتى متى؟

كان إبراهيم بن أدهم يقول: «وَاللهِ مَا الحَيَاةُ بِثِقَةٍ، فَيُرْجَى نَوْمُهَا، وَلاَ المَنِيَّةُ بِعُذرٍ، فَيُؤمَنُ عُذْرُهَا، فَفِيْمَ التَّفْرِيطُ وَالتَّقْصِيْرُ وَالاتِّكَالُ وَالإبطَاءُ؟ قَدْ رَضِينَا مِنْ أَعْمَالِنَا بِالمَعَانِي، وَمِنْ طَلَبِ التَّوبَةِ بِالتَّوَانِي، وَمِنَ العَيْشِ البَاقِي بِالعَيْشِ الفَانِي».

الخطوة الخامسة: قائمة الذنوب مقابل النِعَم:

اكتب قائمة بالذنوب التي تريد التخلُّص منها، ولا تنس ذكر الذنوب التي قد لا تبالي بها؛ مثل: قلة خوفك وحياءك من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي الجانب الآخر قائمة بنِعَم التي قد مَنَّ الله تعالى عليك بها.

فتقارن بين خير الله تعالى وإحسانه عليك، وبين شرور نفسك وسيئاتها:

فيتوَّلد عن هذا الإحساس بالحياء، مما يدفعك إلى التغيير.

اعمل عمل خير خالصًا لله، يحفظك من عقابه.

واعلم أنه كما أنك تأثم إذا وقعت في ذنبٍ ما، فإنك تؤجر على تركك للذنب، طالما قد تركته امتثالًا لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خذ الخطوة لله وابدأ من جديد.

سنوقف نزيف الحسنات بترك المعاصي بحول الله وقوته.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا أجمعين لما يحب ويرضى،

اللهم وفقنا وأولادنا لما تحب وترضى يا رب العالمين، واكتب لنا التوفيق والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، إنك أكرم الأكرمين.

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا يا أرحم الراحمين.

اللهم اغفر لنا أجمعين، وتُب علينا يا توَّاب.

اللهم وفقنا للتوبة النصوح، واجعل عملنا خالصًا لوجهك.

اللهم سدد ألسنتنا وطهِّر قلوبنا، وحصِّن فروجنا، اللهم نوِّر أفئدتنا بطاعتك، وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا يا أرحم الراحمين، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

اللهم لا تخزنا يوم يبعثون، واجعلنا ممن يأتِك بقلب سليم، آمنا في الأوطان والدور، وأصلح الأئمة وولاة الأمور، واغفر لنا يا عزيز يا غفور.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.



فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الإهداء.. ٥
مقدمة ٧
الهدف من طرح هذا الموضوع ١١
قواعد هامة...................................... ١٥
الخطوة الأولى: مِنْ أي العصاة أنت! ١٩
الخطوة الثانية: لا تستصغر الذنوب ٢٣
الخطوة الثالثة: الذنب المعتاد.......................... ٣٣
الخطوة الرابعة: إياك والفرح بالذنب....................... ٣٥
الخطوة الخامسة: رفقًا أيها العاصي ٣٩
الخطوة السادسة: استعظم ذنبك.......................... ٤١
الخطوة السابعة: أصلح خواطرك ٥٧
الخطوة الثامنة: حاسب نفسك........................... ٥١
الخطوة التاسعة: قطار العمر............................ ٥٥
الخطوة العاشرة: كن هكذا عند الزلة....................... ٥٩

الخطوة الحادية عشرة: إياك ومحقرات الذنوب ٦٥
الخطوة الثانية عشرة: إياك و المجاهرة ٦٩
الخطوة الثالثة عشرة: ماذا عملت البارحة ٧٥
الخطوة الرابعة عشرة: إياك وما يُعتذر منه ٧٩
الخطوة الخامسة عشرة: تفكر قبل أن تعصي الله ٨٣
الخطوة السادسة عشرة: فارق دواعي المعصية ٨٩
الخطوة السابعة عشرة: لا تعير غيرك بالذنب ٩٥
الخطوة الثامنة عشر: فلا تقعد معهم ١٠١
الخطوة التاسعة عشر: لا تفارق الأخيار.................. ١٠٥
الخطوة العشرون: إذا تكرر الذنب فكرر التوبة ١١٣
الخطوة الحادية العشرون: أكثر من الاستغفار............... ١٢١
الخطوة الثانية والعشرون: داوموا على الاستغفار ١٢٧
الخطوة الثالثة والعشرون: أحوال الاستغفار ١٣٣
الخطوة الرابعة والعشرون: التوبة النصوح ١٣٩
الخطوة الخامسة والعشرون: فر أيها العاصي إلى مولاك...... ١٤٥
الخطوة السادسة والعشرون: لذة لحظة تبقى حسرة ١٥١
الخطوة السابعة والعشرون: أما آن لك أن تتوب ١٥٧

الخطوة الثامنة والعشرون: تذلل بين يدي مولاك ١٦٣
الخطوة التاسعة والعشرون: افعل الحسنة بعد السيئة ١٦٩
الخطوة والثلاثون: مكفرات الذنوب...................... ١٧٣
الخطوة الواحد والثلاثون: الاستغفار ١٧٩
الخطوة الثانية والثلاثون: الصبر على الابتلاء ١٨٢
الخطوة الثالثة والثلاثون: تحقيق التوحيد ١٨٩
الخطوة الرابعة والثلاثون: ذنوب الخلوات ١٩٥
الخطوة الخامسة والثلاثون: فانصب........................ ٢٠١
الخطوة السادسة والثلاثون: معرفة عقوبات الذنوب ٢٠٧
الخطوة السابعة والثلاثون: لا تدع الدعوة.................. ٢١٥
الخطوة الثامنة والثلاثون: الصدقة ٢٢١
الخطوة التاسعة والثلاثون: هل تعاهد الله على ترك المعصية . ٢٢٧
الخطوة الأربعون: خطوات عملية للتخلُّص من الذنوب ٢٣١
فهرس الموضوعات.................................. ٢٣٧

للتواصل وطلبات الكميات

الشيخ عيسي بن صالح السادة

جوال: ٠٠٩٧٣٣٥٠٦٠٥٥٧